أمريكا ياويكا

محمود السعدني

أمريكا يا ويكا

تأليف
محمود السعدني

هنـــداوي

أمريكا يا ويكا

محمود السعدني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٣٩٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود السعدني.

المحتويات

استفتاح	٧
١- الناس الطيبون!	١١
٢- في سبيل الرب	١٥
٣- نهر البرعم	٢٣
٤- الحضارة والصياغَة	٢٧
٥- تجارة البني آدمين	٢٩
٦- ميادين القتال والغرام	٣١
٧- عبادة الدولار!	٣٧
٨- المسلمون السُّود	٤١
٩- ونصفها ... للأسف!	٤٥
١٠- الأعمال بالأرداف	٤٧
١١- حضرة صاحب العصابة!	٥١
١٢- عصر الاحتكار	٥٥
١٣- حكومة المافيا	٥٩
١٤- «أمريكا يا ويكا»	٦٣
١٥- تدريب وتهليب ... وأبطال!	٦٧
١٦- تجارة الرياضة	٧١
١٧- باي ... باي	٧٥

استفتاح

أمريكا هي أعظم وأضخم وأرخم إمبراطورية ظهرت في التاريخ ... أما كونُها أعظم فهي اختصرت من ميزانِيَّتها بعد التَّفاهُم مع الاتحاد السوفيتي ١٦٠ مليار دولار من ميزانية الدفاع ذلك العام ... أما كونُها أضخم؛ فهي بلاد بلا حدود، وهي في حجم ٥٠ دولة، وشعبها خليط من كل شعوب الأرض. أما كَونُها أرخم إمبراطورية؛ فهي بالرغم من عَظمتها وضخامتها تَدَّعي أن اللُّوبي الإسرائيلي يتحكَّم في مُقدَّراتها وفي قراراتها. وهي تغضب جدًّا إذا اشترت إمارة عَجْمان، مثلًا، صفقة سكاكين من الصين، ولكنها تُهنِّئ إسرائيل إذا أطلقَت صاروخها إلى الفضاء الخارجي. والدليل على رَخامتها — أيضًا — أن كل رؤسائها مع اليهود وهُم في السُّلطة، ومع العرب عندما يُصبِحون على المَعاش. وهي تجتاح دولة في حجم حي من أحياء نيويورك؛ مثل بَنَما بحجة أن رئيسها نورييجا يُتاجِر في المُخدِّرات، مع أن السبب الحقيقي في اجتياح بَنما هو السيطرة على قناة بَنما واحتلالها إلى الأبد. وهي هاجمَت كُوبَا ذات يوم بحجة أن كاسترو دكتاتور، ولكنها تَتعامل مع دكتاتور السَّلفادور، وتتعاطف مع دكتاتور زائير. وهي ظلَّتْ زمنًا طويلًا تذرف الدَّمع على حقوق الإنسان الضائعة في رومانيا، وفي بولندا، ولكن قَلْبها لم يخفق مَرَّة واحدة لحقوق الإنسان الضائعة في دولة إسرائيل! وهي زعيمة العالَم الديمقراطي، ولكنها انتفَضتْ غاضبة عندما سادت الديمقراطية في شيلي، وتآمَرتْ عليها وأسقَطَت الرئيس المنتخَب الليندي، وقصفَت قَصْره بالقنابل وقَتلَتْه تحت الأنقاض! وهي قائدة العالَم الحر، ولكن كل عملائها في بعض أجزاء العالَم يحكمون بالحديد والنار. وهي تتصدَّر الحملة ضد المُخدِّرات في العالَم، ومع ذلك تَبيع الصنف الممتاز في أسواق العالَم لتشتري أسلحة لجيش الكونترا الذي كان يُقاتِل الثورة في نيكاراجوا.

إن أمريكا باختصار هي أرخم إمبراطورية عرَفها تاريخ البشر، ومع ذلك فالسوق الأمريكية هي أكبر سوق تجارية في العالَم، والديمقراطية في داخلها هي أوسع ديمقراطية عرفَها أي شعب من شعوب الأرض.

وباستطاعة أي مُواطن أمريكي أو مقيم على أرض أمريكا أن يُصدِر صحيفة، أو يُؤلِّف حزبًا، أو يخترع دِينًا جديدًا أو يدير محطة إذاعة، أو يمتلك قناة تذيع ما يشاء من برامج التليفزيون. وفي أمريكا صحافة تستطيع أن تُسقِط رئيس الولايات المُتَّحِدة، وفيها أعظم أبطال الرياضة، وأغنى أغنياء العالَم، وأعظم فن سينمائي يمكن إنتاجه، وفيها فن مسرحي ليس له مثيل في أركان المَعمورة، وفيها فُرص لأي صاحب فِكر أو صاحب عِلم، وهي رائدة في مجال الفَنْدقة، وفي مجال الأطعمة المحفوظة، وهي أكثر دولة في العالَم استخدامًا للطيران الداخلي، وأغنى وأقوى شركات الطيران بها هي التي تعمل طائراتها على الخطوط الداخلية، وأَهْيَف شركاتها هي التي تعمل فيما وراء البحار. وفي أمريكا عِصابات تسرق الكُحْل من العين، وفيها مافيا تُدير المعارك الانتخابية، وتُقاوِل حضرتك لتوصيلك إلى الكونجرس أو إلى الوزارة. وفي أمريكا فَساد لم يسبق له نظير من قبل، ولن يكون له نظير في المستقبَل. وفي مَقدورك أن تَشتري عضو الكونجرس، وعُضو مجلس الإدارة، ومُحافِظ الولاية، ومدير البوليس في المدينة، وصاحِب القلم وحامِل المُسَدَّس، ولكن نهار أبوه أزرق مَن يُضْبَط في حالة رشوة، ونهار جده أسود مَن تَسوقه الصُّدَف السيئة إلى دخول السجن الأمريكي.

أمريكا باختصار ليست دولة ولكنها قارَّة، وهي ليست جزءًا من البَشَرية، ولكنها البَشَرية نفسها في سِحرها وفي انحطاطها، في ظُلمها وفي عدلها، في طموحها وفي اعتدالها، وفي غِناها وفي فَقْرها، في زهدها وفي طمعها. وهي على عكس الإمبراطوريات السابقة إذا سقطَت ستجد العالَم كله معها؛ لأن اقتصادها يُؤثِّر في العالَم كله. ودولارها هو العُملة الرسمية الآن للكرة الأرضية. وأي دولار نَضعه في أي بنك في العالَم تجده مُدرَجًا في كشف بالبنك المركزي الأمريكي.

إنها فتوَّة العالَم الجديد والوحيد أيضًا. وهي مثل المرحوم إبراهيم كروم فتوة مصر، استطاعت أن تُحطِّم كل الفتوات الآخرين، وأن تُزيحهم من طريقها، وأن تدوس عليهم بالأقدام. ونهار أُمه أزرق أي زعيم يقف في وجه أطماعها، أو يتحدَّى إرادتها، أو يخرج عن خَطها، وهي أحيانًا تَتدخَّل بنفسها وأحيانًا تستخدم صِبيَانها، استخدمَت إسرائيل ضد العرب، وحكومة بريتوريا ضد أفريقيا، وباكستان ضد أفغانستان. والسان سلفادور

ضد نيكاراجوا، وجواتيمالا ضد كُوبَا، وتايوان ضد الصين، وكوريا الجنوبية ضد كوريا الشمالية!

وهي البلد الوحيدة التي تُطلِق على حكومتها اسم إدارة؛ لأنها ليست دولة ولكنها شركة، ومواطنوها ليسوا شعبًا ولكنهم مُساهمون في الشركة، وكل مُساهِم يستطيع أن يضاعف حِصَّته بشراء أسهم أكثر، ويخون الحظ بعض المُساهِمين فيفقدون الاسم تبعهم، ويتحولون إلى صُيَّاع ومتسوِّلين. ونهار أمه أزرق مَن يقع منهم من قعر القفة؛ لأن الشركات لا قلب لها، إن المَصلحة هي سيدة الموقف، وعليك أن تُدافع عن مَصلحتك بقبضة اليد، أو بماسورة المُسَدَّس؛ ولذلك فليس هناك أي فرصة في حل عادل لأي مشكلة والأمل الوحيد هو في الوصول إلى العدل الأمريكي للمَشاكل، والعدل الأمريكي هو إلى جانب القَوِي وضد الضعيف، إنه عَدْل أشبه بقانون الغابة، وفي هكذا قانون لا أمل إطلاقًا في أن يتغلب الحمار الوحشي على الأسد، أو يطاردُ الأرنبُ الذئبَ، أو تتحدَّى الغزالةُ النمرَ، وعلى مَن يريد أن يحصل على حقه في العصر الأمريكي أن يكون له مَخالب وأنياب، وأن يكون له زئير، أما الغَلَابة والذين على باب الكريم فليس لهم أي أمل، وليس أمامهم أي مَخرج، إلا أن يرضوا بالمكتوب وأن يخضعوا للمقسوم، أو يطلبوا من أمريكا حمايتهم لقاء السمع والطاعة.

وسوء حَظِّنا نحن أبناء هذا الجيل أنَّنا عِشنَا العصر الأمريكي. ووقَعْنا تحت طائلة العدل الأمريكي. وذُقنَا بعض الخير الأمريكي من أول الشيراتون إلى فراخ كنتاكي. والخيبة التي هي بالويبة أن العمر امتد بنا حتى شهدنا البروسترويكا تَبَع العم جورباتشوف. لقد كانت الإمبراطورية السوفيتية خيال مآتة، ولكنها كانت صمام أمن، وكانت جدارًا آيلًا للسقوط يستخدمه الغَلَابة ساترًا ضد الطغيان الأمريكي، وكانت سلاحًا صَدئًا ولكنه رغم الصدأ كان يَذود عن الخائفين والمُرتعشين، ثم جاءت البروسترويكا لتُلقي بخيال المآتة على الأرض، ولتهدم الجدار الخامس وتكسر السلاح الرديء، وخَلَت الساحة للفتوة الأمريكي ولصِبيانِه العابثين.

ولكن ... رُبَّ ضارة نافعة. وحسب القانون الإلهي. كل شيء هالك إلا وجه ربك، وحسب قول الشاعر: لكل شيء إذا ما تم نقصان. وكما المثل الشائع: ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع. وسَيَجْري القانون على إمبراطورية أمريكا كما جرى من قبل على كل الإمبراطوريات، وسيحدث في الحياة كما يحدث في المسرح، عندما تصل الأحداث إلى الذروة يبدأ الانهيار، وأعتقِد أننا على أبواب مرحلة بداية النهاية. وكل ما نرجوه هو ألا تتحقق مَقولة: ما تفرحش في اللي راح إلا لما تشوف اللي جاي.

وندعو الله أن يجعل العصر القادم أفضل من العصر الأمريكي، وأن تظفر البرية بعصر جديد، يأخذ فيه كل ذي حق حقه، ويتساوى فيه الجميع في الحقوق والواجبات، وليكن العصر القادم هو عصر البشر وليس عصر الإمبراطوريات، ولا يمكن الوصول إلى هذا العصر، إلا بقيام دولة الكُرة الأرضية فلا حدود ولا جوازات ولا ميزانيات، وإنما خير الأرض لكل أهلها.

هل يحلم العبد لله؟

أعتقد أن هذا هو الذي سيكون خلال المائة عام القادمة. وعندما يأتي الوقت، سيكون الدِّين لله، والأرض للجميع.

ويا رحيم، يا رحمن، نَجِّنا من العصر الأمريكي.

محمود السعدني

الفصل الأول

الناس الطيبون!

عندما وضَع كولومبس أقدامه على الأرض الأمريكية كانت أمريكا كلها شمالية وجنوبية هي أرض الهنود الحُمر، وبعد أن عاش كولومبس معهم فترة، كَتَب إلى ملك إسبانيا قائلًا: هؤلاء الناس طَيِّبون جدًّا ومُسالِمون جدًّا، بحيث إني أقسم بجلالتكم أنه لا يوجد أُمَّة في العالَم أفضل منهم، إنهم يحبون جيرانهم أكثر مما يحبون أنفسهم، كما أن حديثهم شديد الحلاوة واللُّطف، ورغم أنهم فعلًا عَرايَا إلا أن سلوكهم مُحتَشم وجدير بالإطراء.

ولكن هذا الإطراء من جانب كولومبس لم يمنعه من خطف عشرة من الهنود الحُمر، حملهم معه إلى إسبانيا، وقد مات أحدهم بعد وصوله إلى الشاطئ الأوربي، ولكنه قبل ذلك كان قد أصبح مسيحيًّا طيبًا، ولقد كانت رحلة كولومبس إلى أمريكا هي بداية النهاية لصنف الهنود الحمر. وانتهَت المعركة بين البِيض والحُمر بإبادة قبائل بأَسْرها، وضاع كل أثر لقبائل: الفيكوت، والبوكانكت، والأباتشي، والكوماتشي، والموهيكان، والغاراغانست، والشوني، ولم يُدمِّر البِيض صنف الهنود الحمر فقط، ولكنهم دمَّروا الحضارة، والتاريخ، والعقيدة، والفن، وأبادوا الجنس نفسه، واشترك في عملية التدمير الجيش الأمريكي، وتُجَّار الفراء، والباحثون عن الذَّهب، والقَتلة المحترفون، والمُقامرون، والمبشِّرون، ورجال اللاهوت، وبَلغت وحشِيَّة البِيض حدًّا لا مثيل له في التاريخ؛ إذ تم إبادة قبائل غاراغانست، وبنواخ خلال عام واحد فقط، وأُبِيدَت قبائل البودا، وتأمى، والكياكابو، بعد حرب ضارية دامت عشرة أعوام، وكانت قبائل الهنود تقاتل بقيادة الصقر الأسود، وحقَّقوا انتصارات رائعة ضد البِيض، ولكن بعض الخونة من الهنود الحمر خانُوا زعيمهم، فسَلَّموه للبِيض عام ١٨٣٢م مقابِل عشرين جوادًا ومائة دولار، وقد أدخلوه السجن ولكنهم قبل ذلك عَرضُوه للفُرْجة على البِيض في المدن المختلفة، وبعد أن مات في أَسْرِه الذي لم يستمر إلا ستَّ

سنوات، حصل حاكم منطقة آيوا على هيكله العَظْمي وعرَضَه في مكتبه عدة سنوات، وأندروا جاكسون رئيس أمريكا الأسبق، والذي كان الهنود الحمر يسمونه السكين الحادَّة، ذبح خلال عمله كضابط عشرات الألوف من الهنود التشيروكي، والتشيكوتو، والسيمونول.

والحق أقول: إن مأساة الهنود الحمر هي أعجب وأغْرَب مأساة في تاريخ البَشر، ففي البدء استقبل الهنود الحمر القراصنة البِيض القادمين من أوربا بكل الوُد والتَّرحاب، وعندما جاع هؤلاء الوافدون قدَّمُوا لهم الأغذية، وعندما شَعروا بالبرد قدَّموا لهم الأغطية، وعامَلوهم كإخوة وأصدقاء، ولكنَّ شيئًا ما في البِيض وفي سلوكهم جعلهم ينفرون من صنف البِيض عمومًا؛ فقد كان هؤلاء الوافدون من وراء البحر ذَوو العيون الزرقاء والشعر الأصفر يكرهون كل ما في الطبيعة من غابات وطيور ووحوش ومروج وأنهار، وحتى الهواء نفسه كانوا يضمرون له حقدًا شديدًا، وقد اندهش الهنود الحمر بشدة عندما شاهدوا البِيض يَتبوَّلون في مجاري الأنهار، ويبصقون على الأرض، ويُطلِقون النار على الحيوانات دون أن تكون هناك أي حاجة لقَتْلِها، لقد عاش الهندي حياته كلها يُقدِّس الطبيعة، ويُكنُّ احترامًا خاصًّا للأنهار والتُّربة وللغابات الحية وللطيور، وكان لا يقتل إلا الحيوان الذي يحتاج إلى لحمه أو إلى جلده، وكانوا يؤمنون بإله السموات العَلِي، ويعتقدون أن الجنة في مكان قريب من الله في السماء، وأن بها مروجًا وغابات وجيادًا أصيلة وأنهارًا تفيض بالعسل والسمن، وكانوا يَعتقدون أن الميت ينتقل فورًا إلى الجنة بعد موته، وكانوا يقدرون الشجاعة ويحتقرون الجبناء، وزعيم القبيلة هو أشجعها، أما صاحب الحكمة فهو المستشار، وكانوا يصطادون الخيول البرية بطريقة لا يعرف سِرَّها إلا الهنود الحمر أنفسهم، وقد تَوصَّلوا اليها بعد دراسة طويلة لعادات الحصان وطبيعة حياته في البراري المُوحِشة، كان الهندي يعرف أن الحصان إذا شعر بالفزع انطلق هاربًا بأقصى سرعة، وكان يقطع عشرة كيلومترات على الأقل قبل أن يشعر بالتعب، وعندئذٍ يضطر إلى التَّوقُّف، وقد لاحَظ الهندي الأحمر على مَر السنين أن الحصان الهارب لا يذهب إلى اتجاه معيَّن، ولكنه يدور في حلقات، ويقطع المسافة التي يَجريها على هيئة قوس، فإذا توقف، توقَّف في مكان غير بعيد عن الذي انطلق منه، وبالخبرة والتجربة اكتشف الهندي أن النُّقطة التي يتوقف عندها الحصان لا تبعد عن النقطة التي انطلق منها أكثر من كيلومتر واحد وعلى خط مستقيم معها، فكان الهندي يعمد إلى إفزاع الحصان البَرِّي، فيسارع الحصان بالهرب، بينما يسير الهندي الهُوينَى في خط مستقيم، وعندما يقطع الهندي كيلومترًا واحدًا يكون الحصان المتعب قد وصل إلى نفس النقطة منذ دقائق، ويكون الحصان قد توقَّف

ليلتقط أنفاسه بعد أن شعر بالأمان بابتعاده عن الخطر الذي أفزعه، ولكنه يُفاجَأ بعد لحظات بالهندي نفسه يقف أمامه، فيعود إلى الهرب من جديد، وتتكرر القصة مرتين أو ثلاث مرات حسب قدرة الحصان وقُوَّته، ولكنه في المرة الثانية أو في المرة الثالثة على الأكثر يكون الحصان قد نزف أنفاسه كلها، ويستولي عليه الشعور بأنه وقع في قبضة قَدَر محتوم لا يستطيع منه فرارًا، وعندئذٍ يقف الحصان مُستسلمًا ويستسلم مُطيعًا، وبعد دقائق يكون الحصان مربوطًا بحبل يمشي وراء الهندي الأحمر إلى حيث يَجري تدريبه واستئناسه، ولقد حاول البِيض اصطياد الحصان بالطريقة الهندية، ولكنهم فَشلوا فشلًا ذريعًا، فاكتفوا بوضع الفخاخ والكمائن في طريقه، ولقِيَت آلاف من الجياد الأصيلة حتْفها بسبب هذه الكمائن والفِخاخ، وكانت قُطعان البقر الوحشي تَجوب الأرض الأمريكية بحثًا عن المَرعَى والماء في قُطعان كبيرة، يربو عددها أحيانًا على عِدَّة ألوف، وكان الهنود الحمر على علم تامٍّ بمواعيد هِجرَتها وبالطُّرق التي تسلكها تلك القطعان وكانوا يصنعون لها الكمائن في الطريق، ويبدَءُون صيدها عندما تَستقر هذه القُطعان في الأماكن التي تلجأ إليها، وكانوا يصطادون العدد الذي يحتاجون إليه، ثم يتركون القطيع يرعَى في هدوء ويذهبون إلى حال سبيلهم، ولكن الذي أدهش البِيض حقًّا، هو ما لاحظوه خلال عملية الصيد، فقد كان الهندي الأحمر يُوجِّه سهمه القاتل إلى البقرة التي وقع اختياره عليها فتسقط مكانها، ثم تتوالَى السِّهام وسقوط البقر دون أن يُحرِّك القطيع ساكنًا أو يلجأ إلى الهرب، بينما كانت رصاصة واحدة من البِيض تجعل القطيع يَفرُّ هائمًا في البراري، ومات عشرات من الصَّيادين البِيض أثناء عملية الفرار هذه بسبب الفزع الذي ينتاب القطيع ويذهب به إلى حد الجنون أحيانًا، ولم يكتشفِ البِيض السر الهندي في اصطياد البقر إلا بعد فترة طويلة من الزمان، وكان الفرق بين الطريقة الهندية والطريقة الأوربية هو الفرق نفسه بين المعرفة والجهل، والتجربة والخيبة، كان الهنود الحمر يُدرِكون أن لكل قطيع قائدًا من البقر يتبعه كل القطيع، إذا توقف القائد توقف القطيع وإذا فَرَّ القائد فَرَّ القطيع، وكان أول سهم يُوجِّهُه الهندي في عملية الصيد يكون دائمًا من نصيب القائد، ثم تتوالى عمليات الصيد بعد ذلك دون أن يفر الجميع؛ لأن القائد لم يفر، ولأن القطيع مُنتشر على مساحة خمسة كيلومترات على الأقل، لم يدرك بعد أن القائد قد قُتِل، ولكن البِيض لم تكن لديهم هذه الحاسَّة لمعرفة قائد القطيع، فكانوا يَصطادون البقر بطريقة عشوائية، فكانوا يقتلون عشر بقرات مرة واحدة ثم ينطلق القطيع هاربًا لا يلوي على شيء.

الفصل الثاني

في سبيل الرب

وكان من عادة الهنود الحمر إقامة مهرجان كل عام اسمه مهرجان التأهيل للحياة، وفي هذا المهرجان كانوا يُزوِّجون الرجال الشيوخ بالبنات الأبكار، ويُزوِّجون النساء المُسِنَّات بالشَّباب الناهض، وكان هذا الزواج لا يستمر أكثر من عام واحد، تكتسب فيه البنت البكر الخِبرة من الرجل العجوز، ويكتسب فيه الشَّاب الخبرة من السَّيدة المُسِنَّة، وفي العام التالي يتزوج الشُّبان الأقوياء من الفتيات الصغيرات، وتبدأ دورة حياة جديدة مُدعَّمة بالتجربة والخبرة، وكان يحلو للهندي العجوز أن يختار يوم وفاته، وكان غالبًا يختار يومًا ربيعيًّا جميلًا، طقسه معتدل وشمسه مشرقة، في ذلك اليوم كان الهندي العجوز يُودِّع أهله، ويحمل معه الزاد الذي يحتاج إليه في رحلته إلى الدار الآخرة، ثم يصعد وحيدًا إلى قمة الجبل، وهناك يتمدَّد في هدوء ويتطلَّع إلى السماء ويُتمتِم في صوت خافت، هذا طيب يصلح لانتقال المرء من هذا العالَم الأرضي إلى جنة الله في السماء، ثم يُغمض عينيه ويموت في هدوء.

وكانت الحرب تدور بين القبائل الهندية بين الحين والآخر، وكانت الحرب وسيلتهم لإفراز جيل جديد من الزُّعماء والقادة. وكانت لهم تقاليد رفيعة وشديدة الرُّقي لم تعرفها جيوش البِيض في حروبها إلا قريبًا، كانوا لا يقتلون أسيرًا ولا شيخًا ولا امرأة ولا طفلًا، ولا يطعنون أحدًا من الخَلْف، ولا يُباغِتون قبيلة، وكان من عادتهم أثناء المعركة سلخ جلود رءوس القتلى من قبائل الأعداء، وكان كل هندي منهم يزهو بعدد فروات الرأس التي في حوزته، ولكنهم كانوا يَعفُون عن سلخ فروة رأس المقاتل الشجاع؛ احترامًا لشجاعته وتقديرًا لقلبه الذي لا يخشى الموت، أما الجبان الذي يفر من المعركة، فهو لا يجلب العار على نفسه، ولكنه يجلب العار على القبيلة كلها، وغالبًا كانت القبيلة تتولَّى قتله بنفسها، وكانوا يعيشون في مُجتمع بدائي يُنتِج فيه الجميع وتتوزَّع فيه خيراته على الجميع بعدل

شديد، وكانوا يحترمون كبار السِّن، ويستمعون إلى نصائحهم ويستفيدون من خبرتهم. كان الهندي الأحمر يعامِل النساء باحترام شديد ولطف أشد؛ ولذلك رفضت مئات من النساء البِيض اللواتي وقعن في أسرهم أن يَترُكْن أزواجهن الهنود، ورفَضْن العودة إلى مجتمع البِيض بسبب المعامَلة الطَّيِّبة والاحترام البالغ الذي كان يبديه الهندي لنسائه. وكان الهنود الحمر لا يأكلون إلا الطازج من الطعام، ويشربون اللبن المحلوب فور حَلْبه، ويأكلون الخبز الذي يصنعونه بأيديهم فور نُضْجه، وكان من عادتهم إقامة الحفلات والأفراح كل ليلة، يُغنُّون فيها ويرقصون، وكان إذا مات الهندي في الحرب، تاركًا خلفه عدة زوجات، انتقلَت الزوجات على الفوز إلى شقيق الميت، وإذا لم يكن له أشقاء انتقلَت إلى أولاد العم، أو إلى العم نفسه، وكان من حق الهندي أن يتزوج أي عدد من النساء ما دام أنَّهن راغبات في الزواج منه، فقد كان اختيار شريك الحياة من حق الزوجة وليس من حق الزوج، وكانت الزوجة إذا رغبت في الافتراق، تَركَت بيت الزوجية ولجأت إلى بيت رئيس القبلية، وكان من حَقِّها عند ذلك أن تختار من تشاء ليكون زوجًا لها، وكان مهرها هو عدة خيول وعدد من الأبقار وعدد من فَراوي الرأس قطعها المرشَّح للزواج في مَعاركه ضد الأعداء، وكان الهندي إذا قطع عهدًا على نفسه نفَّذَه، وإذا قاتَل لا يتوقف عن القتال إلا إذا قَتل عدوه أو مات، وكان إذا اختلف مع قبيلته لأي سبب من الأسباب، لا يلجأ إلى أعداء قبيلته على الإطلاق، ولكنه يعيش وحيدًا في البراري حتى يتم الصُّلح مع قبيلته فيعود أدراجه كما كان، وكانت للهنود فنون راقية، ولا تزال بعض رسومهم باقية كما هي داخل الكهوف المَنحوتة في الجبال، وكانوا يَتزيَّنون بالريش، ويعشقون الألوان الزاهية، ويُؤمنون بالسِّحر، ويَتداوَون بالأعشاب البرية، وكانوا أول من اكتشف الطباق ودخَّنوه، وكانوا يعيشون كما قال أحد زعمائهم «في غاية السعادة والحب حتى جاء هؤلاء الوافدون من وراء البحر فجعلوا من الحياة مِحْنة وأحالوها إلى جحيم» والمأساة أن هذا الذي حدث للهنود من جانب البِيض لم يكن له مُبرِّر ولا أي سبب، اللهم إلا جَشع البِيض وطبيعتهم العدوانية واحتقارهم الشديد لغيرهم من البَشر!

من يريد أن يفهم لُغز أمريكا، عليه أن يعود قليلًا إلى الوراء، إلى اللحظة التي رسَتْ فيها أول سفينة على الشاطئ الأمريكي، قادمة من الشاطئ الآخَر للأطلنطي ... لحظتها كانت أمريكا مجرَّد كيان جغرافي، قارَّة مترامية الأطراف، مترامية السكون، هادئة وعذراء، غنية إلى أقصى حد، وممتلئة إلى حد الشبع، تسكنها قبائل شديدة الشَّبه بقبائل العرب في الجاهلية، قبائل وكل قبيلة لها زعيم، وكل زعيم له شارة، وهم يتكلمون لغة واحدة

ولهجات شَتى، ولهم فُنونُهم وأدبهم، ويُزاولون السِّحر، ويُمارسون الطب، ولهم عادات وتقاليد ويُقدِّسون الشجاعة، ويتقبلون الموت برحابة صدر، ويُحبون الورد والزهور، ويعيشون في أمان واطمئنان، وربما توهَّمُوا أنهم وحْدَهم على كوكب الأرض، وأنه لا شيء فيما وراء البحر ... إلا البحر وأمواجه وأعماقه وسره الدفين! هكذا كانت قارَّة أمريكا لحظة رسَت أول سفينة قادمة من الشاطئ الآخر تحمل على ظهرها عُصبة من حُثالة قارَّة أوروبا، مهاجِرين بحثًا عن الرِّزق، وهارِبين من أحكام قضائية، ومُجرِمين خارِجين على القانون، ومُغامِرين سَئِموا الحياة في الأرض القديمة التي أَجدبَت، وجاءوا يَضربون في المجهول عن حياة أفضل، ومستقبل مضمون! ومع هؤلاء كان هناك عدد من المُبشِّرين جاءوا يصرخون في البَرِّية: أَعِدُّوا طريق الرَّب، مَهِّدوا سُبُله مستقيمة! وكان الجميع على ظهر السفينة مُسلَّحين من الرأس حتى أخمص القدم؛ خَناجر، ومطاوٍ، وبنادق، ومُسَدَّسات، ومَدافع، حتى أصحاب القداسة كانوا مُسلَّحين بالأناجيل والصُّلبان والمُسدسات. ولِمَ لا؟ وقد جاءوا في مهمة في سبيل الرَّب، في سبيل الرَّب سيفعلون أي شيء وكل شيء، وهم بالتأكيد فعلوا ذلك، لم يَتوانَوا ولم يَتهاوَنوا، وعلى المعابد البدائية للهنود الحمر أقاموا كنائسهم، وعلى أشلاء الملايين من سكان البلاد الأصليين شيَّدوا أديرتهم، واختلطَت أنغام الأرغُن وتراتيل صلاة عيد القُدَّاس بصياح الجَرحى من الهنود الحمر، وأنَّات الذين حصدَهم الرصاص بالألوف، وداست عليهم حوافر الخيل بلا رحمة! المهم أنه لحظة رَستْ السفينة أوَّل مرة على الشاطئ الأمريكي لم يكن على ظهرها من حضارة العالَم القديم إلا المُسَدَّس والإنجيل. ومن هذه اللحظة وإلى الأبد ستلعب كل أداة منهما دورًا مهمًّا ومؤثِّرًا في حياة أمريكا! وسيكون المُسَدَّس في المقدِّمة والإنجيل بعد ذلك، ولكن كل منهما سيكمل مهمة الآخر، وسيكون التعاون بينهما على أكمل وجه!

تلك، كانت البداية، ولكن النهاية جاءت أفضل مما كان يرجو هؤلاء الرواد، تم ذَبْح الهنود الحمر عن بكرة أبيهم، حتى الذين ألقَوا السلاح وعَقَدوا المعاهَدات معهم، انْقضُّوا عليهم وذبحوهم بعد ذلك، فلم يكن هؤلاء المُهاجرون البِيض يَنشُدون السلام، ولكنهم كانوا يريدون الأرض! وتحرَّك البِيض على ثلاثة مَحاور لتحقيق هذا الهدف، إبادة الذين هَبُّوا يدافعون عن أرضهم، وتحييد الذين لم يَفهَموا حقيقة الأمر، واستمالة الذين في قلوبهم مرض! استمالوهم بالويسكي وبالسلاح، وهو سلاح استُخْدِم أغلبه في إبادة هنود آخَرين، مُستغلِّين حُب الهنود للزعامة، وسعيهم للرئاسة، وشَغفهم الشديد بقيادة الآخَرِين! ولم يكن هناك في ذلك الوقت رأي عام عالَمي ولا صحافة مُؤثِّرة، ولا راديو ينقل

الأخبار، ولا أُمم مُتَّحِدة، أو حتى متنافرة. كما أنه لم يكن هناك قانون يحكم العلاقة بين أصحاب الأرض وهؤلاء الذين جاءوا من وراء البحر. كان كل منهم قاتلًا أو مقتولًا، وكان قَتْل البني آدم لا يُكلِّف أكثر من رصاصة، وكانت الرصاصة لا تُكلِّف أكثر من خمسة سنتات؛ ولذلك كان البِيض يَتسلَّون أحيانًا بقتل قبيلة صغيرة، وأحيانًا كانوا يَتراهنون على قَتْل عائلة هندية ترعَى على شاطئ النهر! وكان القتل أداة لتبديد السأم، ووسيلة لشغل أوقات الفراغ!

وهكذا، ومِن خلال أكبر جريمة عرَفَها تاريخ الإنسان، قامت إمبراطورية أمريكا ولا تزال، إمبراطورية العنف والعافية، العَضَل والقبضة، القوة والعنفوان! وبدلًا من السهول امتدت الشوارع، وَمَحل الجبال قامَت ناطحات السحاب، وبدلًا عن الحصان انطلقَت السيارات من كل نوع! وفي أوَّل أيام الاستقرار كان البِيض يختارون أشرس المُجرِمين لتولِّي منصب العمدة، وبعض هؤلاء كان يجمع بين العُمدية والقضاء! وفي تاريخ أمريكا صفحات مُطوَّلة عن ثورات هَبَّت ضِد عُمَد، وضِد قُضاة وانتهَت بشَنْقِهم على أغصان الشجر! فهذا الشعب الذي احترف القتل لم يكن من السهل قيادُه إلا بواسطة قتلة لهم تاريخ عريق في الإجرام! ولقد توارثت الدولة الجديدة الرُّوح نفسها، وشُرطة أمريكا هي أغرب شُرطة في العالَم، وسَحْب المُسَدَّس أسهل من سَحْب سيجارة، وقَتْل مُواطن في الطريق أهون من قَتل ذبابة! ولذلك يُنصَح السائح والغريب أن يَستسلم على الفور إذا أمَره شُرطي بذلك، وألَّا يحاول أن يدس يده في جيبه لاستخراج منديل أو علبة سجائر؛ لأن وضْع اليد في الجيب معناه في السلوك الأمريكي أنَّك تشرع في سحب المُسَدَّس، وعندئذٍ يكون من حق الشرطي إطلاق النار عليك … ولا تَثريب عليه! ولذلك — أيضًا — ستجد في جيب كل مواطن أمريكي سلاحًا يُدافع به عن نفسه، ويعتدي به على الآخَرين، حتى الفقراء منهم يحملون شفرات حلاقة من النوع الذي كان يستعمله الحلَّاقون أيام زمان! وفي كل بيت ستجد مِدفعًا رشاشًا على الأقل، ومُسَدَّسًا سريع الطلقات، وبندقية آلية، حتى مِظلَّات السيدات تجد لها سُنونًا مدينة تخترق قلب الأبعد إذا لَزِم الأمر! ولهذا السبب لن تعثر بسهولة على مُتسوِّل في أمريكا، ولماذا يَتسولَّون؟ إذا كان العاطل يستطيع أن يأكل عيشه بمُسَدَّس، والضائع يستطيع أن يشق طريقه في الحياة بخنجر، كما أن المِدفَع الرَّشاش هو خير وسيلة للسيطرة على الجماهير، والعصابات هي طريقك إلى مجلس النُّوَّاب، ومجلس الشيوخ، ورئاسة الدولة، وهي أيضًا الوسيلة الوحيدة للوصول إلى قيادة النقابات العمالية، والنوادي الرياضية؛ ولذلك فكل مدينة في الولايات المُتَّحِدة هي غابة

من الأسمنت المُسلَّح، وهي غابة أكثر خطرًا من غابات أفريقيا، وأشد شراسة من أحراش الأمازون!

إن الإمبراطورية التي قامت على القتل، ستظل تمارِس القتل حتى النهاية ولن تعرف من أين يأتيك الموت، من العصابات أم من الشرطة؟ من الشعب أم من الحكومة؟ فالكل قاتِل والكل مجرم. وعساكر الشرطة يُشاهَدون في المطاعم يتناولون طعامهم ومُسَدَّساتهم على الطاولة، والمُجرم يقضم الساندويتش بيساره ويمينه في جيب معطفه استعدادًا للطوارئ! وسائق التاكسي مُسَدَّسه في جيب بنطلونه، والساقي في البار مُسَدَّسه في درج أمامه مَحشُو مُستعِد للإطلاق في أي لحظة، ورَبَّة البيت تَسحب مُسَدَّسها من تحت الوسادة إذا دق جرس الباب بعد التاسعة مساء! وينصحك مدير الفندق الذي تنزل فيه بعدم الخروج وحْدَك ليلًا، وينصحك بعدم الوقوف على باب الفندق بعد الحادية عشرة مساء! وينصحك الجميع بعدم استخدام مترو الأنفاق إلا إذا كنت ضمن شلة، إنه الخوف يحكم المدينة ويحكم الولاية ويحكم الإمبراطورية كلها. وهم يخافون القتل ويُمجِّدون القتلى. وكما كان حسن الإمام مخرج الروائع يحتفل بالراقصات ويكتب تاريخ مصر من خلال صالة بديعة. كذلك فَعلَت هوليود، فهي تكتب تاريخ أمريكا من خلال الجريمة، وتُؤرِّخ للولايات المُتَّحِدة من خلال قصص حياة أشهر المجرمين! وهم مجرمون لا كمثلهم مُجرمون في أي مكان. في إنجلترا مثلًا يحتفلون بروبين هود، كان مجرمًا يحب الفقراء ويعطف على الضعفاء، وكان يسرق من الأغنياء ليعطي المُعدمين! وأرسين لوبين في فرنسا كان لِصًّا شريفًا يسرق الأثرياء ليعطي الفلاحين. ولكن دلنجر في أمريكا كان شيئًا آخَر مختلفًا. لصًّا حقيرًا يتحاوَر بالمُسَدَّسات، ويتفاهم بالمِدفَع الرَّشَّاش، وهو يقتل الذين يقفون في وجهه والذين يقفون من ورائه! وهو لا يرحم الذين يعملون ضده والذين يعملون معه، وهو قتل أعتى خصومه وأخلص أصدقائه، وهو أخذ من الجميع ولم يُعطِ أحدًا شيئًا، وسَلَّمَته للموت البنتُ التي كانت تحبه، عندما اكتشفَت أنه لا يحب أحدًا ولا يتعلق بأحد، وأنه مجرم هوايته القتل ومِهنتُه السرقة! وجوني أيجر مُجرم عتيد في حياة أمريكا كان سائق تاكسي في النهار وملكًا من ملوك الجريمة في الليل، وكان يُشرف على إمبراطورية من كازينوهات القمار، وبيوت الدعارة، وشبكات لتزييف العُملة، ومافيا لفَرض الإتاوات! وبلغ من فرط وحْشِيَّته أن هجَره الكل وتركه الجميع، ولم يَبقَ معه إلا صديق واحد كان يبكي الليل كله وينزوي في أحد الأركان النهار كله. وعندما صرخ جوني أيجر في وجهه لماذا لا تذهب أنتَ الآخَر؟ رد وهو يبكي لأنني أجبن من أن أذهب.

وأضعف من أن أعتمد على نفسي، وليس أحب على قلبي من أن أراك يومًا جُثَّة مُمزَّقة بفعل الرصاص. ولم يتركه جوني يستمر، أخرج مُسَدَّسه وأفرغه في دماغه، وفَقَد آخِر صديق! وهذه هي عينة من مُجرمِي أمريكا، مُجرمون بلا طعم وبلا لون، مُجرمون فقط، مُجرمون لا أكثر ولا أقل. وإذا كان الإناء ينضح بما فيه. فالمجرم الأمريكي هو نتاج المجتمع الأمريكي، وهو نموذج الشخص الأمريكي، هذا الذي انحدر من سلالة المهاجرين الأوائل، الذين ذَبَحوا قبائل بأَسْرهم ولم يَخفق لهم قَلْب، وأبادوا شعبًا بأَسْره ولم يَرمش لهم جَفن. وهؤلاء هم الذين ارتكبوا مَذبحة هيروشيما دون أي قَلق! وارتكبوا مَذابح فيتنام دون أي عذاب، وقَتلوا الملايين في كوريا، وفي شيلي، وفي جواتيمالا، وفي بوليفيا، وفي الكونغو دون أي إحساس. فالمهم ليست الخسائر، المهم النتائج، والأمريكي الحقيقي يقول لك في خيلاء: لولا إبادة الهنود الحمر لما كانت أمريكا، ولولا أمريكا لما كانت حضارة القرن العشرين! لقد خُضْنا في بحر الدماء لكي نصل إلى القمر وإلى الكواكب. وما قيمة الهنود الحمر أمام تفتيت الذرة وإنتاج مَرْكَبات الفضاء؟

هذه هي النفسية الأمريكية وهذا هو المزاج الأمريكي، وهذا هو التاريخ الأمريكي بلا ديكور ولا تزويق! سلسلة متصلة من الجرائم، وهي جرائم أدَّت إلى الخير في النهاية من وجهة النظر الأمريكية؛ ولذلك ... عبثًا تحاول استِدْرار عطْف أمريكا على شعب فلسطين، وعبثًا تحاول دفْع أمريكا إلى الوقوف في صف قضية السُّود في جنوب أفريقيا. فأمريكا ترى في إسرائيل شبابها الأوَّل، إنها كالكاتب العظيم الذي يصادف كاتبًا شابًّا يُذكِّره بشبابه، فيُسارع إلى تقديمه وتدعيمه واحتضانه. وإذا كانت إسرائيل قد أبادَت نِصف الشعب الفلسطيني فإنَّ جريمتها هي نِصف جريمة أمريكا، والأمريكي عندما تُناقِشه في هذا الأمر، يظن أنك أَبْلَه أو ربما مَعتوه. وماذا في إبادة نصف شعب؟! إذا كان الثمن هو قيام إسرائيل قمة التَّمدُّن في صحراء القرون الوسطى، وبيداء الجهالة والاستبداد؟! إن المسألة ليست شفقة وليست إنسانية، إنه منطق القوة، والأمريكي مع القوي وهو مع الغالب؛ لأن التاريخ نفسه لا يقف إلى جوار الضعفاء والمهزومين. المهم هو النوع الإنساني، ليس مهمًّا مَن الذي ذهب؟ ومن الذي يجيء؟ بل المهم مَن الموجود الآن؟ وماذا يفعل؟ ولذلك لن تجد الحكومة الأمريكية صعوبات في إقناع الرأي العام الأمريكي بضرورة إبادة شعب العرب لأنهم يحتكرون النِّفط ويُهدِّدون مستقبل أمريكا ووضعها الممتاز! ولن تجد صعوبة في إقناع الرأي العام بضرورة إبادة الروس؛ لأنهم العقبة في طريق أمريكا لفرض سيطرتها على العالَم وإحكام قبضتها على الكون! فالأمريكي مُستعد لأن يسمع كلمة «إبادة» دون

أن ينبض فيه عِرق. المهم أن تكون «الإبادة» مضمونة، وطريقها سهلًا، ومُهم أكثر أن تتم الإبادة دون خسائر جسيمة للجانب الأمريكي. وإذا كان جَدُّ الأمريكي الأول قد أباد صِنف الأباتشي، والكومانشي، وجلس في أرضهم يصطاد السَّمك ويُربِّي الدجاج. فليس صعبًا أن تُقنِع الحفيد بإبادة جنس العرب وجنس الأفريكان، خصوصًا إذا أكَّدَت له أن في هذه الإبادة مَصلحة لتطوير المدنية وفائدة لعملية الارتقاء بالحياة!

غريبة، أليس كذلك؟ ولكنها أمريكا القاتلة. أمريكا التي ذبحت شعبًا بأكمله. وداست على حضارة زاهرة، وأذابت جنسًا من أجناس البشر، وأقامت حضارتها على أشلاء وعِظام وجماجم عَشرات الملايين، ثم اعْتُبِر الأمر كله بعد ذلك طبيعيًّا، وانطوت صفحة الجريمة وكأنها لم تكن، ثم امتد التزييف بعد ذلك إلى سِجلَّات التاريخ، وتَحوَّلت الجريمة إلى عملية جراحية كانت ضرورية من أَجْل نمو المدنية وتطوير الحضارة! وكما المريب يكاد يقول خذوني ستَجد على أبواب أمريكا الآن تمثالًا يحمل شعلة مُوقَدة في يده، ويُسمُّونه تمثال الحرية! الحرية؟! ولم أجد معنًى لهذا التمثال بعد شهر كامل قضيتُه في أمريكا إلا أن تكون حرية المهاجِرين من خَلْف البحر في إبادة سكَّان الأرض الأصليين! وبهذا المعنى فقط انطلقوا، وتمتَّعوا بِحريَّتهم على أكمل وجه! ويا أيَّتُها الحرية، كم من الجرائم تُرتَكب باسمك!

الفصل الثالث

نهر البرعم

ولقد قُدِّر للعبد لله أن يشهد بقايا أسوأ جريمة ارتكبها جنس البِيض من البشر ضد جنس آخَر، كل جريمته أنه من لون مختلف ولم يَبْقَ من شعب الهنود العظيم في قارَّة أمريكا المُتَّسعة الأرجاء إلا سكان هندوراس، وبوليفيا، وكولومبيا، والمكسيك. أما الذين بَقوا منهم في الولايات المُتَّحِدة، فقد ذابوا في المجتمَع الأمريكي، يرتدون الجينز ويُدخِّنون البَايِب، ويرقصون على أنْغام الرُّوك أندرول. ولكن الحكومة الأمريكية لأنها بلا تاريخ ولأنها عديمة الأصل والفصل، فقد حرصت على إقامة مُستعمَرة هِندية لزوم فرجة السُّيَّاح، وداخل المستعمرة يقوم بعض الهنود الحمر بتمثيلية كاملة عن حياة الهنود الحمر قبل مجيء البِيض من وراء البحار. فالزعيم يجلس في الخيمة، على رأسه تاج الرِّيش، وفي يده غليونه وحريمه بين يديه، وفي أنحاء قرية الهنود عَشرات من الشَّغِّيلَة. بعضهم يدبغ الجلود، وبعضهم يطهي الطعام وبعضهم يقوم بترويض الخيل. صورة كاذبة عن مجتمع الهنود في سالف الزمان. فلم يكن الهنود الحمر من هذا الطراز من البشر يتكئون على المَساند، ويَقضون وقتهم مع الحريم. فقَبْل مجيء البِيض من وراء البحار، كان لدى الهنود الحمر مِهنتان رئيسيتان ومُقدَّستان أيضًا. العمل، والقتال. كان الهندي في أيام السلام يعمل بلا كلل، يصطاد في الغابة، يصنع فراشًا ولباسًا من جلود الحيوانات، ويصنع سلاحًا من عظامها وقُرونها، وكان يزرع الأرض بالحبوب والدُّخان. وفي وقت الحرب كان يَتحوَّل إلى مُقاتل شرس، وكان المحارِبون من طراز خاص، يستهين بالموت ولا يتردد في النِّزال مهما كان حجم العدو أو قُوَّته. وبالرغم من الهزائم التي نزلت بهم وقصمت ظهورهم، إلا أنهم لم يتوقَّفوا عن المقاوَمة في أية لحظة، ولم يَجبُنوا في أي وقت. وفي تاريخ الهنود الحمر يَلمع عشرات من القادة العظام الذين حارَبوا حتى آخِر نقطة دم منهم؛ «السحابة الحمراء»، و«الحصان المجنون»، والزعيم «تاتانكا يوتانكا» ومعناها

الثور الجالس، وكان «الذَّيل المُرَقَّط» هو زعيم قبائل التيتون، وكان «الغراب الصغير» هو زعيم قبائل الآرا باهو، وكان «الذئب الوحيد» هو زعيم قبائل الكيوا، وكانت قبائل الكومانش يقودها الزعيم «كوانا باركر»، أما الزعيم «كولورادو» فقد كان يقود قبائل الأباتشي، ثم ظهر من بعده الزعيم «جيرونيمو» وهو الزعيم الذي اهتمت به استوديوهات هوليود وأنتجَت عنه أكثر من عشرة أفلام. أما قبائل أيل بوت التي كانت تسكن الأريزونا فقد كان يقودها الزعيم «أوراي» وهو من بين الخَونة القلائل في تاريخ الهنود فقد حارَب البِيض فترة، ثم انضم إلى جانبهم ضد أبناء جنسه واشتغل مع أفراد قبيلته كجنود مرتزقة في الجيش الأمريكي ضد القبائل الأخرى. ولقد حارب جميع الهنود بشجاعة، وكالأشجار ... ماتت الغالبية العظمى منهم واقفين. أما الذين خُدِعوا بوعود البِيض، فقد لَقوا نهاية مُحزِنة ومُؤلِمة. وفي تاريخ الهنود الحمر قصة مشهورة، بطلُها آخِر زعماء الهنود الحمر الذين قادُوا المقاوَمة ضد البِيض وهو الزعيم جيرونيمو.

فقد حارَب البِيضَ ثم وقَّع المعاهَدات معهم، ثم حاربهم مرة أخرى ثم اضطر إلى الاستسلام لهم بعد أن أقنعوه بأنه سيعيش حرًّا في موطنه الأصلي كمواطن أمريكي، ولكنه بعد أن وضع السلاح وسرَّح جيشه، ألقوا القبض عليه وأخذُوه عنوة مع قبيلته إلى فلوريدا، حيث الرطوبة والحرارة والجو الخانق، وحيث كانت تعيش هناك بقية قبائل الأباتشي والكومانش. وعندما احتجَّ على نقض العهود. سجنوه ومات مصابًا بالسُّل وهو مُقيَّد في الأغلال.

ولقد قُدِّر للهنود الحمر أن يبرهنوا على شجاعتهم وعلى شدة مراسهم في القتال في معركة نهر البرعم. ولم تكن معركة بالمعنى الصحيح ولكنها كانت مذبحة لجيش الولايات المُتَّحِدة بقيادة الجنرال الأمريكي الطفل كاستر الذي كان يلقب بجزار الهنود، وكان كاستر قد رُقِّي إلى رتبة جنرال وهو في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره، ولذلك أطلق عليه جنرالات الجيش القدامى الجنرال الطفل، فقد كانوا يكرهونه لرعونته واندفاعه وعدم مبالاته بالأخطار. ولكن حكومة الولايات المُتَّحِدة كان لها رأي آخر في طفلها المدلل، كانت تنظر إليه باعتباره الجزار المناسب لذبح صنف الهنود وإبادتهم، وكان هو عند حُسن ظنِّها، وأثبت في معاركه ضد الهنود أنه الرجل المناسب لهذه المهمة، ولذلك لقبه الهنود بالجزار، وفي الوقت نفسه كانوا يَحملون له كثيرًا من الإعجاب لشجاعته، وبعض القادة الهنود كان يشعر نحوه بكثير من الاحترام، لاستهانته بالموت ولجَلَده على القتال، كانت معركة نهر البرعم هي واحدة من أعظم المعارك وأشرسها التي دارت بين البِيض والهنود

الحمر. ففي نقطة يَنحني فيها النهر ويرسم قوسًا التقى الجيشان ذات صباح، جيش البِيض المكوَّن من عشرين ألف رجل بقيادة الجنرال كاستر، وجيش الهنود الحمر الذي يضم مُحاربين أشداء من قبائل السو، والبرولا، والمنكنوا، وأسان أرك، والشايان، وتحت قيادة الزعيم الهندي «الثور الجالس» بدأت المعركة بمناوَشات بين الفريقين استمرت عدة ساعات ثم لجأ البِيض إلى استخدام المدفعية الثقيلة، وعندما حل المساء لجأ الزعيم «الثور الجالس» إلى حيلة خدع بها الجنرال كاستر، فقد أوعز إلى جنوده بالفرار من أرض المعركة في صورة شراذم مذعورة، وأن يسلك المنسحبون كل الطرق وأن يذهبوا في كل الاتجاهات، وانطلت الحيلة على الجنرال كاستر. فقد تصوَّر أن الهنود أصيبوا بضربة قاصمة، وأنهم تحوَّلوا إلى فلول، وبات ليلته على أمل أن يطاردهم في الصباح ليقضى عليهم جميعًا مرة واحدة وإلى الأبد. ولم يكد نور الصباح يضيء حتى كان جيش الهنود يحيط بمعسكر كاستر من كل الجهات. وعندما أدرك كاستر الموقف بوضوح، كان الوقت متأخِّرًا. لقد أفلح الجنرال الهندي «الثور الجالس» في إبطال مفعول المدفعية الثقيلة، لأن المسافة بين الجيشين لم تعد أكثر من عدة أمتار ولم يَعُد أمام كاستر إلا أن يقاتل بالبنادق والسلاح الأبيض أو يلجأ إلى الفرار مُعرِّضًا جيشه لخسائر رهيبة، ولكن كاستر الأحمق المغرور قرر أن يخوض المعركة ومهما كان الثمن. وعلى ضفاف نهر البرعم الذي تحوَّل إلى نهر من دماء البشر، دارت المعركة بين كاستر والثور الجالس، وانتهت نهاية أجبرت أمريكا على تنكيس أعلامها، وصار يوم المعركة يوم حداد عام في كل الولايات. لقد أُبِيد الجيش الأمريكي الذي شاء له حظه النحس دخول هذه المعركة. وبلغ عدد القتلى أكثر من ثمانية عشر ألف جندي، أما المئات الذين نَجَوا من القتل فقد وقَفوا يَتضرَّعون للهنود الحمر أن يأخذوهم أسرى، وأبْدَوا استعدادهم للعمل عند الهنود الحمر كخدم، ولكن «الثور الجالس» رفض أن يأخذ أسيرًا واحدًا منهم وأمر بقتلهم جميعًا، وفتَّش الهنود الحمر بين جُثث القتلى حتى عَثَروا على جثة الجنرال كاستر وقد أُصِيب بسهم في قلبه، وعندما تقدَّم أحد المحاربين الهنود لينزع فروة رأس الجنرال جريًا على عادتهم، نهاه الثور الجالس بشدة، وأمر بأن يدفن بما يليق به كقائد احترامًا لشجاعته وتكريمًا لذكراه كمقاتل لم يجبن أبدًا عن خوض الحرب!

وثارت ثائرة البِيض في العاصمة الأمريكية وجرَّدُوا حملة للثأر وتمكَّنَت هذه الحملة من إبادة عدة ألوف من الهنود المسالِمين الذين لم يشتركوا في المعارك. والأغرب أن معظمهم كانوا من النساء والأطفال. وحينما احترم الهنود الحمر عدوهم الأكبر كاستر فلم

يَسلُخوا فروة رأسه احترامًا لشجاعته. نجد العكس تمامًا في سلوك البِيض، فلم يحدث أبدًا أن احترموا أي شيء أو أي أحد. وقد صرخ الزعيم جرينومو عندما عاد إلى قريته بعد إحدى المَعارك واكتشف أن البِيض أغاروا على قريته وهو مشغول بالمعركة وأنهم أحرقوا منزله عن آخِره وقتلوا زوجته وأطفاله. وقف الرجل يصرخ على أطلال منزله «لقد حاربتُ طويلًا وكثيرًا ولكني لم أقتل في حياتي امرأة أو طفلًا أو شيخًا عجوزًا أو مقاتلًا بلا سلاح. إن هؤلاء البِيض لَيسُوا بَشرًا ولكنهم شياطين على هيئة بني آدميين».

الفصل الرابع

الحضارة والصياعَة

وكانت معركة نهر البرعم هي صحوة الموت بالنِّسبة للهنود الحمر، فلم يحدث أن قامت لهم قائمة بعد ذلك، واشتدت حملات البِيض ضدهم حتى تمكَّنُوا أخيرًا من حصارهم في مُستنقَعات فلوريدا، وبعض الهنود الذين تركوهم يعيشون في أريزونا وأجبروهم على ارتداء ملابس البِيض وقُبَّعاتهم، وظَلُّوا يَتسكَّعون بِلا وجهة وبِلا عمل، وسَخِر أحدهم من حاله فقال: «لقد ألبسونا ملابسهم، ومَنحُونا إِلهَهم لنعبده، وأعطَوْنا كتابهم المقدَّس لنقرأه، وحرَّموا علينا الزراعة والصيد، وفرَضوا علينا العيش على إعانة الحكومة، ثم قالوا لنا: الآن تَحضَّرْتم، ولم أكن أعلم أن الحضارة والصِّيَاعة وجهان لعملة واحدة!»

لقد انتهَت مأساة الهنود الآن لسبب بسيط للغاية، وهو أن الهنود انتهوا، وستفشل الآن في العثور على هندي أحمر واحد في أنحاء الولايات المتحدة؛ لأنهم يحاولون إخفاء أصلهم. ولكن العبد لله عثر على أحدهم في طائرة عملاقة أَقَلَّتْنِي من نيويورك إلى لوس أنجلوس، قدَّم لي نفسه في البداية على أنه مكسيكي الأصل، وخلال الحديث عرفتُ منه أنه مهندس رَي وأنه يعمل في شركة كبرى تتولَّى تحويل مجاري الأنهار وإقامة السدود عليها، وبعد ثلاث ساعات من الطيران فتح الرجل قلبه للعبد لله عندما علم أنني من مصر، ودهشتُ عندما علمتُ أنه من الهنود الحمر، وأن والده تُوفِّي منذ حوالي ثلاثين عامًا وهو يرتدي زِيَّهم. كان المهندس الهندي الذي يبلغ الخمسين من العمر من قبائل الشايان في يوم من الأيام، ونَجا أبوه من معارك الإبادة؛ لأنه كان طفلًا، ولكنه ظل إلى آخر يوم من عمره يذكر الأيام السُّوداء ويحفظ تفاصيلها، وازدادت دهشتي عندما علمت أن المهندس الهندي مُعجَب بعبد الناصر، وبالزعيم كاسترو، وقال لي المهندس الهندي إنه يُعاني الاضطهاد حتى الآن، ولكنه اضطهاد على الطريقة الأمريكية، تشعر به ولا تراه، إنهم يسمحون لنا بالتقدُّم للوظائف الحكومية، وندخل الامتحان وننجح بدرجات كبيرة، ولكن من حق

الحكومة بعد ذلك اختيار الموظَّفِين من بين الناجحين، ولأن حظوظنا سيئة، فلم يحدث أن وقع اختيار الحكومة على أحد من الهنود الحمر الناجحين. لذلك سترى في الحكومة الأمريكية موظَّفِين زنوجًا وموظَّفِين من أصل ياباني أو صيني أو يوناني أو إيطالي، ولكنك لن تعثر على موظف واحد أصله من الهنود الحمر. وقال لي المهندس الهندي، ونحن نطير فوق ولاية كاليفورنيا إنهم يُنتِجون كل عام أفلامًا عن الهنود الحمر يحشونها بالأكاذيب والمُغالطات، ويُنتِجون مسلسلات تليفزيونية أكثر لتلويث سُمعة الهنود الحمر، وتلويث شَرفهم والحط من كرامتهم، وفي المقابل يَمنعون إنتاج أي شيء يُنصِف الهنود الحمر أو يشرح قضيتهم بعدالة، ورفضوا نَشْر كُتب عن فنون الهنود ولغتهم، لقد سَمَّموا عقول أفراد الشعب الأمريكي، وسمَّموا عقول البشر جميعًا، بما أنتجوه من أفلام ومسلسلات، وهم يريدون تبرير جريمتهم ضد الهنود على أساس أنهم كانوا مجرَّد حيوانات بلا لُغة ولا فَن ولا تقاليد من أي نوع، فالهندي في أفلامهم همجي، بلا شرف، وبلا أي أخلاق، وهو في أفلامهم يغتصب النساء، ويقتل الأطفال، ويقطع طريق البِيض المُسالِمين، ويجز رقابهم بلا رحمة. والحقيقة أن كل ما نَسبوه للهنود في أفلامهم كان من صنعهم، والذي ساعد على إبادة الهنود أنهم احترموا تقاليدهم، واحترموا قِيَمهم، ولو أنهم بادَلوا البِيض وحشية بوحشية وانحطاطًا بانحطاط، فربَّما نَجَوا من المصير الأسود، ولكنهم رغم كل الظروف لم يَغتصبوا امرأة بيضاء قط، بينما لم تَنجُ امرأة هندية وقعَت في أيدي البِيض من الاغتصاب. ولم يسكن المهندس الهندي إلا عندما هبطَت الطائرة في مطار لوس أنجلوس، والغريب أنه لم يترك لي اسمه أو عنوانه، باعتبار أن الثرثرة في الطائرة إذا كانت ضرورية فالحذر أوجب! الهندي الآخر الذي التقيتُ به كان يرتدي بالفعل ملابس الهنود الحمر التقليدية. وكان اللقاء في بغداد، وفي مؤتمر عالمي لمناصرة العراق احتجاجًا على ضرب إسرائيل للمفاعل النووي وقد حضر المؤتمر العالَمي وفودٌ من كل مكان. وكان من بينها وفد الهنود الحمر. وأقول الحق، لقد ركبني هَمٌّ شديد بعد هذا اللقاء. روى الرجل مأساة الهنود الحمر بالتفصيل كان للمأساة أسباب كثيرة، من بينها وحشية البِيض وإصرارهم على إبادة جنس الهنود.

الفصل الخامس

تجارة البني آدمين

قصة السُّود في أمريكا أسودُ من وجوههم، ومسيرتهم أصعب من دخول الجمل في عين الإبرة، وحكايتهم تحتاج إلى مَوَّال ولا مَوَّال أدهم الشرقاوي، ومأساتهم في حاجة إلى شاعرة كالخنساء لتبكي عليهم! ومأساة السُّود في أمريكا هي مجرَّد فرع من المأساة الأم، عندما أصبحَت تجارة الرقيق كالنفط هذه الأيام، مصدر ثروة ومصدر قوة، ولقد بدأت التجارة القذرة ذات يوم عندما خَطفَت سفينة برتغالية بعض أهالي ساحل الذهب (غانا) وعَرَضوهم للبيع في البرتغال. واندهش الناس في أوروبا لهذا البنيان البشري العجيب، وهذا الاحتمال الذي بلا حدود، وهذا الصبر على الشقاء بلا نهاية! وسُرعان ما تَدفَّقت المراكب على الشاطئ الأفريقي. تخطف وتبيع، وبدأت شركات العَبيد تظهر هنا وهناك، شركات ولها علامات تجارية، ومؤسَّسات ولها مجالس إدارة، وانتظرت الإعلانات تدعو وترغب الناس في البضاعة الجديدة، وانتشر السُّود في المَزارع وفي المَخادِع، وكما ربح التُّجَّار؛ كسَب النسوانُ البِيض رجالًا من نوع آخر! وإذا كانت أوروبا قد غرقَت حتى أذنيها في تجارة العبيد، فقد بَقيَت أمريكا لفترة من الوقت بعيدة عنها، كان المهاجِرون الجُدد في الأرض الجديدة مُنهمِكين في إبادة جنس الهنود الحمر، فلما استقَرُّوا بدَءُوا البحث عن أيدٍ عاملة رخيصة. وذات يوم ربيعي من العام ١٦١٩م رسَت سفينة هولندية في ميناء «بليموث» وعرَض قبطان الباخرة على المُستعمِرين في «جيمستون» صفقة رابحة. إذ عرض عليهم شراء عشرين زِنجيًّا كانوا معه على ظهر السفينة كعبيد مقابِل كميات من المُؤَن وبعض زجاجات الخمر وكَمية مماثلة من التَّبْغ، وكانت هذه الصفقة هي أول عهد الولايات المتحدة بالعبيد! وسرعان ما نَشطَت تجارة العبيد بعد ذلك بعدة أعوام، وكان مركزها في البداية ولاية نيو إنجلاند، ولم تلبث أن انتشرت التجارة وراجَت، وأصبحت من أهم مصادر الثروة في ولاية جورجيا! كانت تجارة العبيد قد احتلَّت مكانًا مرموقًا في

العالَم، وتحوَّل ميناء ليفربول الإنجليزي إلى بورصة للعبيد، ودخلت أشهر الشخصيات الإنجليزية في سوق العبيد، لدرجة أن معظم ثروات اللوردات الإنجليز كانت نِتاج هذه التجارة المُخجِلة!

وعندما قفز عدد الزنوج العبيد إلى الملايين، وُضِعَت القوانين لتنظيم الرِّق، واختلفَت هذه القوانين من ولاية لأخرى، فهناك قانون يُحرِّم على العبد اقتناء الطيور الأليفة أو تَملُّك الأرض والحيوانات، وقانون آخر يُحدِّد كميات الطعام التي يجب على السيد تقديمها للعبد، وقانون ثالث يُنظِّم العقوبة التي ينبغي فَرضُها والحدود المسموح بها للقسوة عليه، ولكن القوانين اتفقت على أن قَتْل العبد مجرَّد مُخالَفة، وشهادة العبد لا تُقبَل ضد السيد الأبيض أمام المحاكم!

الفصل السادس

ميادين القتال والغرام

ولقد كان بين العبيد الأوائل الذين وصلوا إلى الشاطئ الأمريكي بعض المسلمين وكان من بينهم — أيضًا — أعداد من الوَثَنيِّين، ولكن هؤلاء جميعًا حُرِموا من مُمارَسة شعائرهم الدينية، وأُجبِروا على اعتناق الدين المسيحي، وبالرغم من ذلك، لم يُسمَح لهؤلاء العبيد بتشييد كنائسهم إلا بعد مائتي عام من وصولهم، وقامت أول كنيسة زنجية عام ١٨١٦م. ولم يتنفَّس العبيد إلا خلال حرب الاستقلال؛ فقد حاربوا على الجبهتين، بعضهم مع الإنجليز وبعضهم مع الأمريكان!

وعندما نَشبت حرب تحرير العبيد لم يكن الهدف تحرير العبيد في الحقيقة، ولكن الهدف كان قيام «الولايات المُتَّحِدة» وبالرغم من انتصار الشمال على الجنوب، ومنح الحرية للزنوج، إلا أنهم لم يستمتعوا بحريتهم إلا في القرن العشرين، وبعد أن خاضُوا الحربين العالَميتين وتأكَّدَت هذه الحرية بعد الحرب العالَمية الأخيرة! وكانت الحرب العالَمية الأولى هي الفرصة التي انتهزها الزنوج لإثبات حُريَّتهم والكشف عن مواهبهم. وبسببها أعيد توزيع الزنوج على كافة الولايات المُتَّحِدة بعد أن كانوا يَتكدَّسون في الجنوب. والسَّبب أنه عندما قامت الحرب توقَّف سير المهاجرين إلى الأرض الجديدة، وعاد مئات الألوف من أمريكا إلى بلادهم الأصلية لتأدية الخدمة العسكرية، وعندما خَلَت المصانع من العمال، اتَّجَه أصحاب الأعمال إلى العامل الأسود، وتم شحن العمال السُّود من الجنوب إلى الشمال بأعداد ضخمة، وسرعان ما تدفَّق هؤلاء العمال مِن مناجم الفحم ومزارع القطن، ومن المطاعم والمطابخ، إلى مدن عظيمة؛ مثل: سنسناتي، وديترويت، وشيكاغو، ونيويورك. وبدأ تأسيس حي هارلم أعظم أحياء الزنوج في أمريكا أكثر حَيٍّ يتحدث عنه العالَم! وفي نيويورك بالذات حصل الزنوج على مُمتلَكات لأول مرة تُقدَّر ببلايين الدولارات، وهَبَّت أحياء البِيض المجاوِرة تُقاوِم ظهور السُّود، وظهرت المشاكل العُمَّالية، وزادت

الجرائم وتضاعفَت أعمال الرذيلة، وبِسَبب الحرب أيضًا بلغ عدد الجنود السُّود الذين أُرسِلوا فيما وراء المحيط إلى فرنسا ٢٠ ألف جندي مُلوَّن، ونصحت فرنسا بألا تعامل السُّود معامَلة البِيض؛ لأن هذا العمل ليس من الحكمة، كما أنه ليس من مصلحة أحد! ولكن بَنات فرنسا المُتحرِّرات الخالِيَات من عُقْدة اللون لم يَعبأْن كثيرًا بتعليمات قيادة الحلفاء. عرف الزنوج لأول مرة طعم اللحم الأبيض ... واستطعموه! وعرف الزِّنْجي كيف يكون العبد سيدًا في ميدان القتال وسيدًا في ميدان الغرام أيضًا! وحدثَت عِدَّة حوادث في جبهات القتال، فقد أطلق الجنود الزُّنوج النار على بعض الضُّبَّاط البِيض لإصرار هؤلاء على معامَلة الجنود السُّود معامَلة الحيوانات، بينما كان رصاص الأعداء لم يُفرِّق بين الأبيض والأسود، كما أن الشجاعة لم تكن دائمًا في صف الجنود البِيض! وبالرغم من كل شيء فإن فِرَقًا كاملة من الزنوج بالإضافة إلى بعض من الضباط والجنود السُّود أُدْرِجت أسماؤهم لَمْنِحهم صليب الحرب، وآخرون أُدرِجَت أسماؤهم لمنحهم وسام الشَّرف، وصليب الخدمة الممتازة! ولكن هؤلاء الأبطال السُّود ندموا بشدة عندما عادوا إلى أرض الوطن؛ فقد اسْتُقْبِلوا من الجهات الرسمية بلا مبالاة وبدون ترحيب؛ وحاوَلوا من جديد فَرْض القيود عليهم ضارِبين بعُرْض الحائط ما أفرزته الحرب العالَمية من نتائج جديدة!

ولكن غلاة المُتعصِّبين من البِيض كانوا يعلمون أن الحرب العالَمية الأولى قد أفرزَت نوعًا جديدًا من السُّود، فألَّفُوا في الخفاء جمعية لاضطهاد السُّود، وهي جمعية «كوكلوكس كلان» وقد أنشئت في عام ١٩١٥م؛ أي في نفس الوقت الذي كان فيه السُّود يُعرِّضون صدورهم لطلقات النار في ميدان القتال! وشَرعَت الجمعية في العمل على الفور، وارتكبت أفظع أنواع الجرائم ضد السُّود، وكان الزنوج يُطارَدون كالحيوانات، ويُطلَق عليهم الرصاص، ويُشْنَقون، ويحرقون بدون أدنى شفقة! ووقفَت المحاكم في صَف المجرمين البِيض ضد الزنوج! ووقف محامٍ «أبيض» أمام إحدى المحاكم في شيكاغو يترافع عن المُتهِمين بقتل عشرات من الرجال السُّود يقول: «إنهم سلالة أقل نشأة ولا يحق لهم التَّمتُّع بالاحترام الذي يجب أن يتمتع به الرجل الأبيض!» وفي هذه السنوات الكالحة السُّوداء قام في أمريكا أول تنظيم للزنوج يدعو إلى العودة إلى أفريقيا الوطن الأم. وانتشرت بين السُّود الأغاني التي تبكي أفريقيا وتَتغنَّى بأيام الغابة العذراء، وظهر إلى الوجود أول تنظيم للمُسلمين السُّود من هؤلاء الذين كانوا يَنتَمون في الأصل إلى دين الإسلام، وسرعان ما انضمت إليهم جماعات أخرى كانوا قد اعتنقوا دين المسيح، باعتبار أن مُضطهديهم كانوا مَسيحيين وينتمون إلى نفس الكنيسة التي ينتمي إليها السُّود! وظهر الأب الأسود

يصرخ بأعلى الصوت ضد المجرمين البِيض، وصدَرت أشعار جيمس ولدن، وألف مستر جونسون «مانهاتن السُّوداء»، وقام ألن لوك بِنَشر ديوانه «الزِّنْجي الجديد» وفي المسرح اضطلع شارلز جلين بدور البطولة في مسرحية «الإمبراطور جونز»، وقام بول روبنسون بالدور الأول في مسرحية «جميع ملائكة الله لها أجنحة»!

وعندما هبَّت عواصف الأزمة الاقتصادية في بداية الثلاثينيات، تَشرَّد عدة ملايين من الزنوج، وبينما كانت الحكومة تُغدِق على العاطلين البِيض تَركَت العاطلين السُّود في أسوأ حال! ثم جاءت الحرب العالَمية الثانية وتغيَّر كل شيء، ولأول مرة صار هناك قباطنة من السُّود في سلاح البحرية، وتطوَّعَت أربعة آلاف سيدة زنجية في الجيش النسائي، وكذلك تطوعت الألوف من الفتيات في فِرَق الترفيه عن الجنود! واشترك بوجه عام أكثر من نصف مليون زنجي في الخدمة العسكرية فيما وراء البحار!

وفي خلال سنوات الحرب العالَمية الأخيرة انضم أكثر من مليون زنجي إلى الوظائف المدنية، وفي خلال أربع سنوات حقَّق الزنوج مكاسب أضعاف أضعاف ما حقَّقوه خلال المائة عام الماضية! وما إن حل منتصف القرن العشرين حتى كان الزنوج الأمريكيون قد حقَّقُوا مكاسب عديدة ولأول مرة في تاريخ الزنوج، كان عدد الزنوج الذين يعيشون في المدن، أكثر من عدد المقيمين في الريف، وأصبح هناك مليون زنجي على الأقل ... أعضاء في النقابات العُمَّالية! كما كان هناك ألوف من الخريجين الذين مُنِحوا درجات صفوف القوات المسلحة، ومنح الزِّنْجي حق الانتخابات والترشيح — أيضًا — لعضوية المجالس النيابية.

ولكن هل صحيح انتهت التفرقة العنصرية داخل أمريكا اليوم؟ إن الرجل الزِّنْجي صار مواطنًا أمريكيًّا من الدرجة الأولى؟ الجواب بنعم، بالنِّسبة للقوانين المكتوبة والسلوك الرسمي. ولكن الجواب بلا بالنِّسبة لما يدور بين الكواليس وفي الخفاء ومن وراء ظَهْر القانون الأمريكي! وقد يتقدَّم اليوم مائة زنجي لوظيفة ورجل أبيض واحد، ولكن الاختيار سيقع على الرجل الأبيض، وسيقال لك إنه أثبت في الامتحان الشفوي أنه الوحيد الصالح للوظيفة! والغالبية العظمى من نزلاء السجون من المواطنين السُّود، ليس لأنهم مجرمون بطبعهم، ولكن لأن جميع الأبواب سُدَّت في وجوههم، فلم يعد هناك إلا باب الجريمة! وجميع الأعمال المُنحطَّة يقوم بها السُّود الآن، والصُّيَّاع والمتشرِّدون والمتسوِّلون والغالبية العظمى من البغايا والعاهرات كلهم من الزنوج، والعالَم السفلي كله يحكمه سود، وتجارة المُخدِّرات وحبوب الهلوسة يسيطر عليها السُّود، وجميع الألعاب الرياضية للمحترفين

يتحكم فيها السُّود، والشارع الأمريكي هو شارع الرجل الأسود، ولذلك يخاف الرجل الأبيض من الشارع ويُحذِّر الآخَرين من عواقب السَّير فيه، ولكن تجربة العبد لله أثبتت أنها خرافة، وأن الخوف هو في داخل الرجل الأبيض، وأن السُّود بَشَر كالآخرين بشرط ألا تبدو متعجرفًا ولا تنظر إليهم من طرف العين، ولا تُصافحهم بأطراف الأصابع. أنا زرتُ حي هارلم مثلًا، وجلستُ مع السُّود في حاناتِهم، وعندما عرَفوا أنني أفريقي من مصر انهالت الدعوات على العبد لله، وسلام مربع للأفريقي الغلبان، ودُعِيتُ إلى العشاء مع أسرة زنجية في حي السُّود في مدينة «سنسناتي» في أوهايو، ودعتني بنت سوداء إلى العشاء في الحي الصيني في نيويورك، وسهرتُ الليل معها أجوب شوارع نيويورك ولم يَتعرَّض لنا إنسان بسوء!

لقد نهض الرجل الأسود أخيرًا لينتقم من سنوات الذُّل والجوع، وأصبح الرجل الأبيض أسير خوفه، ولذلك يهرع إلى منزله بعد العاشرة ويغلق على نفسه الباب خوفًا من شبح السُّود. ترافق البنت البِيضاء كما القشطة رجلًا أسود وتسير معه في الشارع بعد منتصف الليل، بينما الرجال البِيض لا يستطيعون الاستمتاع بالبنت السمراء إلا في الخفاء! وإن جهروا بالعلاقة تَعرَّضوا لضرب المَطاوي والموت بالرصاص! لقد شَهدَت أمريكا اليوم نوعًا من التمييز العنصري، ولكنه يختلف عن التمييز العنصري الذي كان معروفًا أيام زمان، فالرَّجل الأسود اليوم يستطيع التَّجوُّل في المدينة دون خوف، والدخول في أي مكان دون عوائق، بينما الرجل الأبيض وَضَع حول نفسه سورًا لا يتعداه، وهو يخاف العراك كما يخاف المنافَسة في المجالات التي يسيطر عليها السُّود.

وإذا سار الرجل الأبيض في الطريق العام بعد العاشرة مساء راح يتلفَّتُ خلفه، بينما الأسود ينام على الرصيف ويحلم أحلام الملوك! ولكن أعظم حركة الآن بين السُّود هي حركة السُّود المسلمين! وهم أكبر خطر على اللوبي اليهودي في الولايات، وأكبر بُعبُع يخيف اليهود. وفي إمكان هؤلاء أن يَكونوا سندًا للعرب، وأن يكونوا طَليعة للفلسطينيين داخل الولايات، وهم لا يحتاجون إلا للدَّعم المادي، ومَهما بلغ حجم الأموال التي ستُنْفَق عليهم فالمردود سيكون بالقطع أكبر من ذلك بكثير، ذلك خير على الأقل من إنفاق الأموال على موائد القمار، وفي أفراح ولا أفراح الأمير خمارويه كما روت الصُّحف عن زفاف شيخ عربي ثَري تكلَّف عشرة ملايين جنيه وكانت فضيحة للعرب في لندن! وهؤلاء المسلمون السُّود يشتد عُودهم الآن في نيويورك نفسها، مَعقل الصهيونية واليهود، ويُشاهَدون بكثرة على نواصي الشوارع ويجمعون التَّبرُّعات، ويبيعون العطور من أجل دعم حركتهم ودفْعِها إلى

الأمام، وكان هناك ثلاثة أبطال عالَمِيِّين في الملاكمة من المسلمين، إمامهم هو محمد علي، والثاني هو سعد محمد، والثالث اسمه مصطفى ولا أعرف اسمه الأخير، وهناك مراكز إسلامية للسود المسلمين في فيلاديلفيا، وبنسلفانيا، وجورجيا، وشيكاغو، وديترويت، كما أن هناك مساجد أنشئت في عدة ولايات خاصة بالمسلمين السُّود، العيب الوحيد في الحركة أن هناك أكثر من طائفة، وهناك نَذير بأن تنشب بين الطوائف حرب ولا حرب البسوس. وعلى الأزهر أن يُوفِد رجاله إلى هناك ليُنسِّق بين الحركات الإسلامية، فليس أكسَب لقضية العرب من انتظام كل هذه الطوائف في طابور واحد، ولو حدث وقام جيش المسلمين السُّود الواحد في الولايات المُتَّحِدة، فسيكون ذلك اليوم هو بداية النهاية بالنِّسبة للنفوذ اليهودي في بلاد القمر الصناعي والصواريخ!

إن قصة السُّود في أمريكا أَسْوَد من وجوههم، ومَسيرتهم أصعب من دخول الجمل في خُرم الإبرة، وحكايتهم تحتاج إلى مَوَّال ولا مَوَّال أدهم الشرقاوي، ومأساتهم في حاجة إلى شاعرة كالخنساء لتبكي عليهم! ولكنهم بالصبر والصُّمود، واحتمال المعاناة استطاعوا أن يقهروا الصعب، وأن يَقلِبوا الآية، وأن يُصبِحوا ملوك الشارع الأمريكي، وأن ينعموا بالليل في بلاد العم سام، بينما يَختفي البِيض وراء المتاريس والأبواب! ويكفي أن ثمانين بالمائة من أبطال أمريكا في الرياضة من السُّود، ويكفي أن عشرين في المائة من أبطال الجيش الأمريكي من الزنوج، وأخيرًا ... يكفي السُّود أن سبعين في المائة من الفتيات البِيض يَحلُمن بفارس أسود! وتسعين في المائة من الشُّبان السُّود يَفوزون بقلوب بيضاء، بينما واحد فقط في المائة من الشباب البِيض يَفوزون بقلب أسود! إنها أمريكا التي بدأت حمراء ثم بيضاء وانتهت سوداء من غير سُوء، ويومًا ما في الخمسين عامًا القادمة سيصبح رئيس الولايات المُتَّحِدة رجلًا أسود، ويستطيع العالَم حينئذٍ أن يَتنفَّس الصعداء، وتكون نبوءة الشارع الزِّنْجي قد تَحقَّقتْ «إنه مَلاك أسود طويل القامة يسير مختالًا في الشارع الذهبي، بينما الشارع الأبيض ينام في الظلام»!

الفصل السابع

عبادة الدولار!

هل تَذْكُرون الأب جونز، الأب المجنون الذي استدرج أتباعه إلى جزيرة نائية في الكاريبي وأقنعهم بأنَّ تناوُل السُّمِّ والموت جماعة هو أقصر طريق إلى الجنة، كان الرجل يُؤمِن بدين غريب، فالحياة قصيرة، والآخرة ممتدة، وعلى الفرد أن يؤمن بأن الآخرة خير من الدنيا، وليس أمام الإنسان ليُبرهِن على أنه يُفضِّل الآخرة على الدنيا، إلا بالذهاب إلى الآخرة طواعية واختيارًا، والانتحار هو خير دليل وهو أفضل برهان، وطوبى للذين ينتحرون؛ لأن ملكوت الله لا يَتَّسع إلا لمن يموتون بأيديهم!

ومذهب الأب جونزليس هو المذهب الوحيد الغريب في أمريكا، هناك مائة دِين وألف مذهب وعشرون ألف طريقة، وهناك جماعات تعبد الشمس، وأخرى تسجد للقمر، وثالثة تُقدِّس الهرم، وجماعة الهرم هؤلاء يؤمنون بأن هرم خوفو هو مركز الكون، وأنك لو زَحزَحْت الهرم من مكانه لاختل نظام الأرض، وربما انطلق الكوكب الذي نعيش عليه في الفضاء ليصطدم بالشمس، وربما ضل طريقه وراح يَسبح إلى يوم القيامة في فضاء بلا نهاية!

ولذلك فهم يذهبون كل عام إلى الهرم الأكبر ليُؤدُّوا طقوسهم هناك، يسألون ربَّ الهرم أن يُبقِي الهرم مكانه، وأن يُحافظ عليه في نفس المكان وبنفس المواصفات، وأحيانًا يستبد الوجد بأحدهم، فيصعد إلى القمة ويلقِي بنفسه سعيدًا ليحظى بالميتة المثالية، ويفوز بالنهاية السعيدة، ويموت وقد تناثرت أشلاؤه على أحجار الهرم! جنون ... ربما، بلاهة ... يجوز، ذكاء ... ممكن، ولكنها الحقيقة، ولذلك فهي مُؤلِمة! في أول لحظة للعبد لله في الأرض الأمريكية، ومن مطار دلاس في واشنطن إلى قلب العاصمة، رأيتُ محطة بنزين في كنيسة، أنكرتُ ما رأيتُ، وسألتُ مُحدِّثي هل هذا ممكن؟ أجابني بأن في مقدور أي مخلوق أن يستأجر كنيسة قديمة، وفي استطاعته أن يستخدمها في أي شيء! يفتح

فيها محلًّا للبقالة، يقيم ملهًى ليليًّا على أنقاضها، يُحوِّلها إلى مَرقَص، وهناك مئات من الكنائس في أمريكا لَقِيَت هذا المصير، ولكن ما حدث لهذه الكنيسة بالذات — كما قال مُرافِقي — هو الوضع الصحيح والسليم؛ لأن البترول هو الإله الجديد في أمريكا!

وفي كولورادو جماعة دينية صغيرة، عدد أعضائها هم عدد أعضاء الأتباع الذين أحاطوا بالسَّيد المسيح، وكل فرد في الجماعة يتسمَّى باسم واحد من الحواريين، فهناك: مَتَّى، وبولس، ويُوحنَّا، وبُطرس، وبرنابا، ويَهوذَا أيضًا، وهم يختارون المسيح مِن بينهم مرة كل شهر عن طريق الاقتراع، وهم يجتمعون ويُؤدُّون الشعائر والطقوس في كهف يمتد غائرًا في بطن أحد الجبال المحيطة بمدينة دنفر، وهم أثناء اجتماعاتهم يرتدون الثياب ويأكلون نفس الطعام ويستخدمون نفس الأدوات التي كان يستخدمها السيد المسيح وأتباعه، وهم يقولون إن السيد المسيح كان يؤمن بأن القيامة ستقوم بعد ستة أشهر، وكان قوله صحيحًا، ولكن الخطأ الوحيد الذي ارتكبه المُفسِّرون، هو أنهم توقَّعوا القيامة بحساب أهل الأرض، ولكن المسيح كان يحسب بحساب السماء، ويوم عند الله بألف سنة عند أهل الأرض، ولذلك فالقيامة ستقوم كما تنبَّأ المسيح بعد موته بمائة وثمانين ألف عام! ولاحِظ الصلة بين ما يعتقدون وما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾! هل قرَءُوا القرآن؟ هل تأثَّروا بما جاء فيه؟ لا أحد يعرف سِر هذه الجماعة، ولا أحد يستطيع أن يفتي في أمرهم؛ لأنهم بلا كُتب منشورة، ولا أقوال مأثورة، كما أنهم أشدُّ صمتًا من الجبل الذي يَدخلون فيه!

وفي ولاية أريزونا جماعة دينية يتزايد عددها يومًا بعد يوم، وللجماعة وسيط هو راعي الجماعة وشيخها، وأتباع مذهبهم يذهبون إلى الصحراء ويقيمون فيها شهورًا، ويُؤدُّون صلاة على الرمل يسألون الله أن يُنزِل الأمطار، وهو يأكلون الأعشاب ويشربون مياه الآبار، وهم يُحرِّمون أكل الأطعمة المحفوظة، واللحوم المُثلَّجة، وهم يُصلُّون والنار مُشتعِلة، ويَتعمَّدون في مياه النهر، وتدخين الغليون حلال ولكن تدخين السَّجائر حرام! وهم يَعتقدون في حياة أخرى بعد الموت، ويُؤْمنون بأن الفردوس في السماء حيث الأشجار والمياه والصيد الوفير!

وهذه الديانة مأخوذة بتصرُّف من ديانات الهنود الحمر، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله يبدو «وسيط» الجماعة يرتدي خِلال الاجتماعات الدينية تاجًا من الرِّيش!

وما أكثر العبادات والديانات في أمريكا، والسبب أن الحرية الشخصية مَكفولة، ومن حق كل فرد في المجتمع أن يختار حكومته عند الاقتراع، وأيضًا من حقه أن يختار

إلهه، بشرط ألَّا يفرض عقيدته على أحد، أو يُجبِر أحدًا على أن يعبد إلهه! وفي الآونة الأخيرة انتشرت البوذية، والهندوكية بين الأمريكيين، وظهرَت جمعيات تُطالِب الحكومة بالسماح لها بإقامة معابد لعبادة الشمس، وأخرى لعبادة الثعبان، ولكن أغربها جميعًا هي الجمعية التي لجأت إلى القضاء تطلب السماح لها بإقامة معبد لدين الإله آمون فرعون مصر القديم، باعتبارها أول ديانة دعت إلى توحيد الله، ولا تزال القضية مرفوعة أمام محكمة مدينة سكرامنتو عاصمة ولاية كاليفورنيا، وقال لي واحد من الذين اطَّلعوا على ملف القضية وعرف شيئًا من أسرار الجماعة: إنهم يُقيمون في البراري بعيدًا على هيئة هرم مدرَّج يشبه هرم زُوسر في سقَّارة، وهناك حقيقة ثابتة وهي أن المكسيك صنَعَت مثل هذه الأهرامات وبكثرة في فترة لاحقة على فترة حكم الملك زوسر الفرعون.

ومنذ عام على وجه التقريب لجأَت إحدى الأسر في ولاية ميتشجان إلى الشرطة تطلب التَّدخُّل لدى الجيران لوقف الإزعاج المستمر الذي يُسبِّبه هؤلاء الجيران، ويمنعون النوم عن أَعيُن الناس في الحي كله، وذهبت الشرطة وعاينت الأمور على الطبيعة، واكتشفت أن هؤلاء الجيران المزعجين دأبوا خلال الأشهر السابقة للشكوى على إقامة حفلات تشبه حفلات الزار في بلادنا، حيث تدق الطبول والدفوف، وينطلق بخور له رائحة نفاثة، وتتصاعد أصوات همهمة وغمغمة وكأنها صادرة من عوالم مجهولة، وتدخَّلَت الشرطة حينئذٍ وأجْرَت تحقيقًا بالفعل لتكتشف حقيقة أغرب من الخيال، فهذه الحفلات ليست حفلات زَار ولا هي حفلات للترفيه، ولكنها حفلات دينية لجماعة تَعبُد بَطْن المرأة، باعتبار أنه المصنع الوحيد الذي يخلق الحياة، ففيه تتكوَّن الخلية الأولى للطفل، وفيه يشب ويترعرع، وخلال تسعة أشهر يصبح كائنًا حيًّا يسمع ويرى ويصرخ أيضًا، ولذلك — في شريعة الجماعة — ينبغي تقديسها والتوجه لها وعبادتها أيضًا، وقُدِّمَت الجماعة للمحاكمة لا لأنها تعتنق هذه المِلَّة الغريبة، ولكن لأنها تَسبَّبتْ في إزعاج الجيران وهو الأمر الذي لا يُغتَفر!

الفصل الثامن

المسلمون السُّود

ولكن أعظم الحركات الدينية التي تُخالف الجو العام في أمريكا، هي حركة المسلمين السُّود، وهي سَمَّوْها كذلك لأن الذين دخلوا في دين الله أفواجًا كانوا في البداية من الزنوج، ولكن الحركة تَطوَّرت بعد ذلك فأصبح هناك أُلوف من البِيض يعتنقون الإسلام، وهناك عدد آخر من الهنود الحمر، وحوالي عشرة أشخاص ينتمون إلى جنس الإسكيمو، والإسلام هناك يتقدم ببطء ولكن بإصرار، وهو يكسب كل يوم أصدقاء جددًا، ولم يفقد واحدًا من أتباعه قط، وهناك مراكز إسلامية نشأت بالجهود الذاتية في بنسلفانيا، وأوهايو، وكاليفورنيا، وعدد آخر من الولايات هنا وهناك ولو مجموعة من الدعاة المسلمين العرب تَفرَّغوا لهذه المهمة لدفعوا هذه الحركة مسافات طويلة إلى الأمام؛ لأن الانقسامات داخل الحركة كثيرة، والخلافات شديدة، وينبغي التَّدخُّل لحصرها الآن قبل أن يفوت الأوان! والسبب في هذه الانقسامات أن الذَّين دعوا إلى الإسلام في بداية الأمر كانوا من بلاد آسيا، من بينهم من يعتنق القاديانية، ومنهم من ينتمي إلى جماعة البهرة، وفيهم من يعتنق المذهب الإسماعيلي، وهذه الجماعات في أمريكا صغيرة ولا تُشكِّل خطرًا في الوقت الحاضر، ولكنها قد تُشكِّل خطرًا في قادم الأعوام! ولكن الذي يُطَمْئِن أن الإسلام الحقيقي الصحيح هو المَوجَة الغالبة داخل الحركة الإسلامية في أمريكا، ولكن الجهود المبذولة حتى الآن في هذا المجال جهود فردية، بمعنى أن هناك تبرعات من رجال أعمال مسلمين، وهناك مساعدات من دول عربية وأخرى إسلامية، ولكني أقترح الآن إنشاء هيئة إسلامية عربية عُليا تشترك فيها كل الدول العربية، تكون مُهمَّتها التبشير بالإسلام ونشره والدعوة إليه في جميع أنحاء العالَم مع التركيز على أمريكا في المقام الأول وأفريقيا بعد ذلك، ولو قامت هيئة مثل هذه مدعومة بالمال والرجال والدعاة المُخلصين ستجد أن الأرض ممهدة، وهي فرصة ذهبية قد لا تُعوَّض بعد ذلك، خصوصًا بعد أن طَحَنَت المذاهب المادية — سواء في

الشرق أو في الغرب — الإنسان العادي وتركَتْه وحيدًا وضائعًا ومُنسحِقًا في بحار من الشك والحيرة والضلال! ولذلك أخذ هؤلاء الناس يلجئون إلى أي شيء يَحمي نفوسهم ولو كان كذبًا، ويُهْرَعون إلى أي بريق ولو كان سرابًا، والسعيد الحظ منهم من اهتدى إلى الطريق الصحيح ... ساقَتْني الصُّدفة إلى رجل أمريكي أبيض في الخمسين من عمره، كان يقرأ في كُتَيِّب صغير يَروي أحاديث النبي صلوات الله عليه، والكتاب مطبوع طبعة أنيقة ومُترجَم بأمانة، ومُهدًى من دولة الإمارات إلى المسلمين الذين لا يقرَءُون العربية، كان الرجل «ماك ستيفن» مبهورًا بما قرأه من الأحاديث، هذا كلام رجل نطَق به منذ أربعة عشر قرنًا، ما أروعه من فكر وما أرجحه من عقل، هكذا قال «ماك ستيفن» الأمريكي الذي ينحدر من أصول اسكتلندية، استمَع إليَّ في انبهار شديد وأنا أعلق على حديثه «العقل كان راجحًا والفكر كان رائعًا» ولكن لا تَنْسَ الإلهام، فقد كان الرجل «رسول الله» تَمْتَم «ماك» أعلم ذلك، ولكن الرسول كان رجلًا قبل ذلك! وراح العم «ماك» عندما عرف أنني عربي ومن مصر يسألني أسئلة المَلهوف في أمور الدين، الكارثة أنهم يظنون — هؤلاء المسلمون الأجانب — أن أي عربي هو فقيه في أمور الدِّين، وأقول كارثة لأن هذا الظن يفتح بابًا أمام النَّصابِين ويَنهالون على الناس فتاوى ما أنزل الله بها من سُلطان كان العم «ماك» توَّاقًا إلى معرفة كل شيء عن الإسلام؛ لأنه وهو صغير في المدارس قرأ فصلًا عن الإسلام في كتاب مدرسِي وصف الإسلام بأنَّه ثورة التُّجَّار لفتح أسواق جديدة أمام التجارة!

وقال كِتاب المدرسة الأمريكية إن «محمدًا النبي» كان تاجرًا، وكان طليعة طَبقَتِه لتحقيق هذا الحلم! قلتُ للعم «ماك» الطيب: يُدهشني أن الأمريكان يَكرهون كل شيء في الجانب الشيوعي ولكنهم في الإسلام يَقتنعون ويُروِّجون نفس التَّحليل الشيوعي!

قال: هل هذا تحليل شيوعي للإسلام؟ لم أكن أُدرِك هذا من قَبل! لقد اختلف الذين يُؤمِنون بالمسيح والذين يؤمنون بالشيطان، ودخلوا معركة ولا معارك البسوس، ولكنهم. وهنا العجب. اتَّفقُوا ضد الإسلام وعليه سألني في براءة: ليه؟ قلتُ: هذه مسألة تاريخية وقديمة، عمرها من عمر الإسلام، وعندما ظهرَت حركة الإسلام الوليدة تحالَفَت عليها إمبراطوريتان كبيرتان، واحدة كانت تعتنق المجوسية، والأخرى كانت ترفع الصليب، وهم الذين أشعَلُوا الحرب في البداية ولم تكن دولة الإسلام قد قامت بعدُ، وكانت معركة معان هي الخطوة الأولى، ولولا إرادة الله لتَمكَّنوا من الإسلام ودفَنُوه وهو بعدُ في المهد! قلتُ للأخ «ماك» الطيب وقد فتح فمه دهشة: وعندما انتشر الإسلام هبَّت أوربا كلها ضده، وتحالفَت كلها عليه، ولا يزال الغرب المسيحي يحتفل بيوم معركة «شارل دي تور»

كواحد من أعظم أيام التاريخ المسيحي إنْ لم يكن أعظمها على الإطلاق؛ لأنه في هذا اليوم انكسر القائد المسلم عبد الرحمن الغافقي، وانحسر المد الإسلامي، وحصَرُوه في الأندلس وحاصروه هناك حتى تَمكَّنُوا في النهاية من طَرِدِه!

وفي العصور الوسيطة جاءت جيوش الغرب المسيحي لتهاجم الإسلام في عقر داره، واحتَلُّوا الساحل العربي كله من اللاذقية إلى دمياط، وتوغلوا في البلاد حتى مشارِف القاهرة، وارتكبوا من الجرائم والمذابح ما يخجل منه الضمير! ولكن أغرب شيء حدث تلك الأيام، أن الغربي المسيحي الذي يُؤمِن بالله والمسيح واليوم الآخر، تعاوَن بكل قناعة مع التتار الذين كانوا يعبدون الأصنام، وتعاوَنوا معهم على الإسلام، مع أنه دين سماوي يؤمن بالمسيحية ويحترم السيد المسيح كَنبيٍّ من أنبياء الله! وصَمَت الأخ «ماك» صمتًا طويلًا وعميقًا، وفي النهاية قال وكأنه يُوصِيني: ما أحوجنا إلى معرفة الكثير عن الإسلام!

وها هو الطريق مفتوح، والفرصة مُتاحَة والرغبة موجودة والإمكانات وَفيرة، فقط علينا أن نبدأ بخطة مدروسة، وبرنامج واضح، وبِطاقَم من الدعاة المخلِصين، وسنكسب في النهاية؛ لأن الإسلام هو دين العصر وكل عصر، شيء آخر أحب أن ألفتَ إليه الأنظار فقد نُنفِق ملايين الجنيهات في سبيل الدعوة، وقد نرسل ألوف الدعاة المخلصين، وقد نكسب ألوف المؤمنين للإسلام، ولكن تَصرُّف مسلم عربي واحد قد يَقضي على هذه الجهود، ويصيبُنا ويصيب الإسلام في الصميم! مثلًا، في لوس أنجلوس كنتُ ضمن مجموعة من السائحين في جولة حول هوليود، وكان ضمن الجولة زيارة لحي الفنانين «بيفر لي هيلز» حيث تسكن جميلات الكواكب ومشاهير النجوم، كان السائق يشرح للسُّيَّاح خلال مكبر صوت، وأشهد أنه كان متحدِّثًا جيدًا، وخفيف الدم، ووقحًا في بعض الأحيان، قبل أن ندخل حي الفنانين سأل عبر الميكروفون: «هل يوجد بينكم عرب؟» لم يرفع أحد يده وأمسكتُ أنا الآخَر عن رفع يدي فقد أدركتُ أن في الأمر سرًّا ما! عاد يسأل مرة أخرى، هل بينكم أحد من المسلمين؟ لم يرفع أحد يده وكذلك فعلتُ أنا الآخر، وهنا قال: «عندئذ سأريكم شيئًا تندهشون له غاية الدَّهْشة وتَعجبون له غاية الإعجاب» وانحرف بالسيارة إلى شارع عام، وتوقف عند قصر منيف تحيط به حديقة مترامية، ويحيط بالجميع سور حديدي غاية في الرشاقة والأناقة والإحكام، ولكن مَن ينظر إلى القصر من أول وهلة كان يدرك أن القصر أصابه التَّلَف الشديد، وزحف عليه الخراب، وثمة آثار نيران تَركَت بصماتها على جدران القصر، وعلى أشجار الحديقة، وعلى السور، وامتد أثرها إلى أشجار الطريق، وقال السائق وهو يشير نحو القصر: هذا قصر الشيخ (...) ولا داعي لِذِكْر الاسم

لأنَّنا لا نقصد التشهير، استطرد السائق قائلًا: إنه عربي (توقَّف عن الكلام وضحك) اشترى هذا القصر بمليونين من الدولارات، وأضاف إليه ديكورات بسبعة ملايين، وأحدث في هذا المكان ضجة ولا ضجة الهنود الحُمر لحظة بدء الهجوم وتظاهَر سكان الحي ضد الرجل، وطافوا في مَسيرة بالحي لم تتوقَّف إلا أمام مبنى البلدية، وطالبوا رئيس البلدية بوقف الضجة أو طرد الساكن من الحي، ولكن الساكن لم يتوقَّف، وفي كل ليلة كان لديه حفلة في القصر، راقصات يَحضُرْن بالطائرات من الشرق، وأطعمة تُحضرها الطائرات من مطعم مكسيم، وضيوف تنقلهم الطائرات من جميع أنحاء الأرض! وأخيرًا لم يجد الجيران بُدًّا من التصرف، فأشعلوا النار في القصر، وأجْبَروا الإسلام على الرحيل! انتهت.

ستقولون إنه سائق وَقِح، وإنه ربما يهودي يكيد العرب والإسلام، وقد يكون هذا صحيحًا كله ولكن الذي يستحق الحرق مثلًا هو العربي المسلم الذي أعطى الفرصة لهذا اليهودي الجبان!

المهم، ما أسهل الوصول إلى قلوب الناس بالإسلام، خصوصًا في هذا الزمان الذي حطَّمت المادة فيه كل شيء في الإنسان الأمريكي، وسيكون الإسلام هو الراحة، التي يلجأ اليها الرجل المكدود لينعم بالسكينة والسلام، وكما قال لي كاتب أمريكي ساخر.

الفصل التاسع

ونصفها ... للأسف!

أمريكا هي بلد الرَّخاء والوفرة والشبع والامتلاء، وهي أرخص بلد على ظهر الأرض؛ لأنها لا تستورد شيئًا من خارج الحدود إلا في أضيق الحدود، وأَهم وارداتها النفط مع أنها منتجة للنفط، ولكن الذكاء الأمريكي جعل الأمريكان يحتفظون بنفطهم بينما هم يستهلكون نفط الآخَرِين، وعملية استيراد النفط من الآخرين عملية مُربِحة؛ لأنهم يبيعون مقابل النفط سيارات أمريكية، وثلاجات أمريكية، وأسلحة أمريكية، وتكنولوجيا أمريكية، ويا بَخْت من نفَّع ... واستنفع! ولكن تبقى في أمريكا سلعة واحدة عزيزة وغالية الثمن، هذه السلعة هي المرأة الأمريكية! وأصل الحكاية أنه عندما وفد المهاجرون الأوائل على الشاطئ الأمريكي كانوا ولا مؤاخذة من صنف القتلة والمجرمين! وكان يُشتَرط فيمن يريد الهجرة إلى أمريكا أن يكون شابًّا وقويًّا وقاسيًا بالدرجة الكافية، وقاتلًا محترفًا؛ لأن الرحلة وقتئذٍ لم تكن بهدف السياحة، ولكنها كانت بهدف السِّفاحة ... وهو المصدر الذي اشْتُق منه فعل: سفح يسفح فهو سفاح! لم تكن الرحلة سهلة ولا مُعبَّدة ولا مُمهَّدة، وكانت الأخطار تكمن في كل شبر، والبلاوي تترصَّد المهاجرين في كل ركن، وكان الشعار المرفوع: قاتل أو مقتول! ولذلك خَلَت المراكب التي حمَلَت هؤلاء المُقامرين من صِنف النساء، وهكذا وجَد المهاجرون أنفسهم بعد أن وضعوا أقدامهم على الأرض الجديدة في نفس المجتمع الذي أَلِفُوه ... مجتمع السجن! سجن ولكنه هذه المرة مفتوح، ولهم مُطلَق الحرية في السجن الجديد بارتكاب جريمة القتل دون عقاب، بل ربما نالهم الثواب والتقدير، ولكن لم يكن معهم نساء وأطفال، ولذلك — أيضًا — حَرص هؤلاء المهاجرون في المعارك التي نشبت بينهم، وبين قبائل الهنود الحمر على اختطاف النساء أحياء، وكانوا يَغتصبونهن بوحشية ويعبثون بأجسادهن بنذالة، ثم يُطلقون النار عليهن في النهاية، ويُلقون بجُثَثهن في العراء! وعندما أَحْكَم القتَلَة قَبْضَتهم على أجزاء شاسعة من أراضي

الهنود وشعروا بشيء من الاستقرار، عندئذ جاءت المراكب وعليها بعض النِّسْوة، ولكنهن كُنَّ من نوع واحد وتم جَلبُهن لغرض واحد، هو التَّرفِيه عن «الأبطال» الذين فتحوا العالَم الجديد! وأُقيمَت هنا وهناك صالونات وفنادق وبارات، كانت تُقدَّم الغرفة مع البِنْت، والمشروب مع النَّدِيمة، وكان على من يريد أن يستأنس أن يدفع كثيرًا، فقد كان الطلب على ودنه والعرض قليلًا! ومن أَجْل الصراع على البنات، ربما مات من البِيض أضعاف ما ماتوا في معارك مع الهنود! فكما كان أسهل مِن سَحْب المُسَدَّس وإطلاق النار إذا وجد الفارس المتعطش أن هذا هو الطريق للفوز بما يريد! وحتى خلال أيام البحث عن الذَّهَب، كان البعض يذهب ويغيب في باطن الأرض أيامًا وأسابيع، يُنقِّب بين الحجارة والتراب في عروق الذهب المختفية هنا وهناك، فإذا عاد إلى المدينة، وضع كل ما عَثَر عليه من المعدن النفيس تحت أقدام غانية تلطخ وجهها بكل أنواع المساحيق! وعندما جاءت النساء الفاضلات بعد ذلك، كُنَّ مُتديِّنات حتى النخاع، وكان مَهرُهن غاليًا، وكان لا يَقدِر عليه إلا أصحاب الدخول الكبيرة، وأصحاب المُسَدَّسات السريعة! وكانت المرأة في ذلك الزمان إذا رَضِيَت بالرجل زوجًا، فهي شريكة له في كل ما جَنَت يداه، وفي كل ما يصل إليه بعد ذلك، وأصبحَت المرأة إمبراطورة في البيت وشريكة في العمل، وبُعْبُع الرجل، وشَبحًا يطارده في كل مكان! ويحتفظ تاريخ أمريكا بقصص حقيقية لنساء مُدمِّرات، ولكنها قصص أغرب من الخيال؛ امرأة شابة في دنفر في ولاية كولورادو، وهي واحدة من أجمل وأغنى ولايات أمريكا، وتحيط بدنفر سلسلة جبال عظيمة تنساب منها شلالات عاتية، ومن هذه الشلالات تتكون عند السفوح بحيرات أعظم، وفي بطن الجبال كان يوجد يومًا ما أغنى مناجم الذهب التي عرفتها أمريكا، يقولون إن زوجة شابَّة كانت تسكن قصرًا في بنسلفانيا بوليفار حي الأثرياء في دنفر بدَّدَت في سبعة أعوام أرباح خمسة مناجم ذهب كان يملكها زوجها، ولم يفعل زوجها شيئًا سوى أنه صعد إلى قمة الجبل وألقى بنفسه من هناك، وعثروا على جثته بعد ذلك في إحدى البحيرات! ويقولون إن سيدة من نيو أورليانز راهنَت برأسمال زوجها كله والبالغ مليون دولار في المراهنة على سباق العربات التي تَجرُّها الخيول، ولم يعرف زوجها بالأمر إلا بعد أن فرَّتْ من المنزل، وبعد أن أعيَاه البحث عنها في كل مكان، عاد إلى منزله في نيو أورليانز ولَزِم الفِراش صريع الحُمَّى عدة أسابيع، وعندما نهض من فراشه وذهب إلى البنك ليسحب بعض النقود اكتَشف أن رصيده على المكشوف، وسقط الرَّجُل أمام موظف البنك مصابًا بالذَّبْحة ومات بعد ساعات!

الفصل العاشر

الأعمال بالأرداف

وفي مدينة بافالو وهي تابعة لولاية نيويورك، راهنت زوجة في لعبة سخيفة تُشبه لعبة ملك ولَّا كتابة، حيث يُلْقي المتراهنون بقطعة نقود في الهواء ثم يُراهِن كل واحد على وجه منها، أقول راهنَت الزوجة على قطيع جاموس كان يملكه زوجها وكانت هي شريكته بمقتضي الحق الإلهي، وكان معها تفويض من الزوج الشريك يخول لها حق التصرف والبيع وخلافه، ولقد جاءت قطعة العملة على الوجه غير المطلوب، وطار القطيع في لحظة مع قطعة النقود الطائرة في الهواء ولم تتمالك الزوجة السفيهة نفسها فانتحَرَت، ولحق بها زوجها بعد ذلك إلى الآخرة! ولكن هذه المرأة الأمريكية التي تتمتع بكل هذا الهيلمان والنفوذ لم تَقْنَع بما هي فيه، ظلَّت تحارب لكي تُوسِّع من دائرة نفوذها، وظلَّت تكسب دائمًا حتى أصبحتْ نِدًّا للرجل، وأصبحت العصمة في يدها، ودخلت جندية في الجيش، وقائدة في الأسطول، وسائقة في السكة الحديد، وعسكري شرطة وهي موجودة في كل وقت وفي كل مكان ورغم كل شيء! ونهار أمه أزرق ويوم الذين أنجَبُوه أسود من قَرْن الخَرُّوب إذا أقدم أمريكي على تطليق زوجته، كل ما يملكه يذهب نصفه إليها حتى البيت الذي يسكن فيه، ولكن إذا طلبت هي الطلاق بدون أسباب إلا لأنها لا تطيقه أو لم تَعُد تستسيغه، أو لأن دمه أصبح ثقيلًا على قلبها، ففي ستين ألف سلامة، ولأن التوازن غير موجود بين الرجل والمرأة، ارتفعتْ نِسبة الطلاق الآن إلى ستين في المائة من مجموع الزيجات؛ أي إنك ستصادف في أمريكا بين كل عشرة نساء، سِتًّا منهن مطلَّقات! الْتَقَيتُ في كولورادو بامرأة مُطلَّقة تعمل جرسونة في بوفيه الفندق، وكانت سمينة ولا بقرة فريزيان، وحمراء اللون ولا بطيخة مصري، ومقبلة على الحياة ولا فتاة في العشرين! واكتشفت أنها عريقة في التطليق، وأنها طُلِّقَت مرتين في المرة الأولى قالت لأنها اكتشفت أنها كانت صغيرة وكانت ساذجة، وفي الثانية لأنها أُصِيبتْ بالضجر، فقد كان زوجها مندوبًا تجاريًّا

لإحدى شركات الأدوية، وكانت وظيفته هي السفر بلا انقطاع بين الولايات لتسويق إنتاج الشركة، واكتشفَتْ أنها إذا بقيت حبيسة في جدران البيت فسيمضي العمر دون أي شعور بالسعادة، ودون أي مشارَكة حقيقية في الحب! وعندما تم الطلاق — حسب رغبتها — أخذَت معها أولادها بعد أن تعهَّدَت بكفالتهم ورعايتهم إلى نهاية العمر، ثم غادرت الولاية التي كانت تقيم بها وجاءت إلى كولورادو واشترتْ بيتًا، وألحقتْ أولادها بالجامعة، وتفرَّغت هي لمهنتها كجرسونة في النهار، ولبهجتها في الليل! وهي بهجة تكلفها الكثير؛ لأنها تنتقل كل ليلة من سرير إلى سرير ومن أحضان رجل إلى أحضان رجل، وهي ترمي شِبَاكها على هؤلاء الذين يَمرُّون في كولورادو وفي زيارة عابرة، والغريب أعمى ولو كان بصيرًا، وامرأة جرسونة وسمينة في ليلة غربة خير من لا شيء! ولقد دَعتْنِي على الغداء في بيتها ولبَّيْت الدعوة، واكتشفتُ أنها تسكن في فيلا تُحيطها حديقة مزروعة بالورد ومغروسة بأشجار التين والتفاح وأنواع أخرى من الفاكهة، وأولادها؛ بِنت في الجامعة وولد في المرحلة الثانوية، وبِنت تعمل في شركة طيران أوريانت، وولد آخر هَجَر البيت منذ زمن بعيد ورحل بعيدًا إلى ولاية في الشرق! والبنت التي في الجامعة على علاقة بولد عربي اسمه عبيد، وهي تعلق صورته في غرفة الصالون، والبنت الموظَّفة تعيش مع رجل يعمل معها في الشركة، تعيش هكذا فهي لا تؤمن بالزواج، وتعتقد أن الزواج اختراع بشري ثَبَت فساده! والدليل على ذلك هو المصير الذي انتهت إليه أمها، وكذلك مصير غالبية النساء اللواتي يَسكُنَّ في الجوار! واكتشفْتُ أنا أن في الشارع الذي تَقطُنه الست الجرسونة أكثر من مائة امرأة مطلَّقة!

وفي لوس أنجلوس الْتَقيتُ في فندق هيلتون ببنت نصفها إسكيمو ونصفها أمريكي للأسف، وهذا التعبير «للأسف» ليس من عندي، ولكن حقوق النطق محفوظة للبنت إياها! والبنت النص نص أشهَد أنَّها طرية كما قطعة الجاتوه، شَهيَّة كما طبق المهلبية، فاتنة كما الصباح الجديد، وهي تشتغل بالأعمال الحرة وجمالها هو رأسمالها، وشبابها هو تجارتها، وهي ليست آسفة ولا نادمة، فهي امرأة أعمال، وإذا كانت الأعمال بالنيات، فهي أحيانًا بالأرداف، وهي تكسب ١٥ ألف دولار شهريًّا، تدفع منها خمسة آلاف للمافيا، وهي التي تدير كل شيء في العالَم السفلي، من أول نوادي القمار إلى العاهرات في الفنادق الكبرى! البنت الإسكيمية الأمريكية جرَّبَت الزواج مرة واحدة ثم أعلنَت توبتها، وليه يا بتاعة الإسكيمو؟ لأنها لا تستطيع أن تَقبَع في البيت في انتظار رجل خرج للعمل! ثم هي تحب الفلوس، والزواج طريق إلى الفقر، وهي طموح والزواج يقتل الطموح، وهي

موهوبة والزواج مَقبَرة للعبقرية! والبنت أمها كانت من صنف الإسكيمو وأبوها كان أمريكيًّا ينحدر من أصول ألمانِيَّة، وعندما تزوَّجَت اختارت رجلًا من أصل هولندي، كان يُثرثر كثيرًا وهو جالس على مائدة العشاء، وينام وهو جالِس أمام التليفزيون، وذات صباح نهضَتْ من الفراش وتركته مع شَخيره وأحلامه وهجَرَت البيت وطلَبَت الطلاق، هكذا ببساطة وبلا مُقدِّمات، وهكذا أيضًا أقسمت برأس أمها، أن زوجها الهولندي سيكون هو زوجها الأول والأخير.

وستجد مئات وأُلوفًا من النساء يَتجوَّلْن ضائعات بين الولايات فالبنتُ بعد السادسة عشرة حُرَّة تعيش مع أمها إذا أرادت، تُفارِق أهلها إذا شاءت، تتزوج إذا رَغبتْ، تَطلبُ الطلاق إذا خطر لها ذلك، وعندما زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده، وأصبحَت المرأة الأمريكية المُطلَّقة أرخص من السيجارة، وهي أرخص من عقب سيجارة إذا كانت قد فارقَت سِنَّ الشَّباب، انتهى العيد الذهبي للمرأة حين كانت إمبراطورة في البيت وشريكة في العمل، ونادرة مثل القطع الذهبية! ولم يَعُد للمرأة الآن إلَّا بعض القشور، وهي للاستهلاك القومي فقط، وللزينة والرسميات ... مثلًا، لا يستطيع رئيس أمريكي أن يتقدم ويطلب من الجماهير انتخابه إلا إذا كانت معه امرأة مُتعلِّقة بذراعه، وهو عليه أن يربت على خَدِّها ويمسح على شَعْرها أمام الجماهير، وهي عليها أن تفتح فَمَها عن ابتسامة متفائلة، وقد يذهب كل منهما بعد ذلك إلى البيت الأبيض أو البيت الأصفر، ليرفع كل منهما عَقيرته بالصياح في وجه الآخر، نَفْس الشيء ينطبق على المُحافِظِين وعلى أعضاء مجلس النُّوَّاب ومجلس الشيوخ، وهؤلاء النواب يَجوبُون دوائرهم الانتخابية مع زوجاتهم يُلوِّحون للجماهير ويبتسمون للأطفال! وبعد الانتخابات سيهرب هؤلاء المحترمون من الشيوخ والنواب إلى العاصمة تاركين زوجاتهم في دوائرهم الانتخابية حتى موعد الانتخابات التالية!

لقد أخذَت المرأة الأمريكية حقوقها كاملة وهي تدفع الثمن الآن، تدفعه من أعصابها ومِن وقتها، ففي وسائل المواصلات أراهنك إذا صادفتَ أمريكيًّا واحدًا يُخلي مكانه لامرأة، ويُحذِّرونك إذا كنتَ مسافرًا على الطرق السريعة من خَطر التوقُّف لنجدة رجل أو امرأة نعم أو امرأة، ولو كانت وحيدة، فما الفَرْق بين الرجل والمرأة وإذا كان هناك احتمال أن يكون الرَّجُل من عتاة المجرمين، فالاحتمال وارد بالنسبة للمرأة أيضًا، لقد أصبحَت المرأة بعضلات ولها شوارب، وبعض النساء كان لهن ذقون كالمأسوف على ذقنها جُولدَا مائير!

ولقد حصلَت المرأة في أمريكا على حُرِّيَّتها، ولكنها حصلَت في الوقت نفسه على تعاستها، وشهدت أمريكا في السنوات الأخيرة أسوأ وأردَأ ألوان الجريمة والتعاسة والضياع من صنوف النساء، ولكن هذه رواية أخرى، وسنرويها لكم على كل حال.

الفصل الحادي عشر

حضرة صاحب العصابة!

كان في تليفزيون الولايات المُتَّحِدة في تلك الأيام برنامج عظيم، أرجو أن تَبثَّه محطات التليفزيون تبعنا أكثر من مرة؛ هذا خير من مسلسلات زوزو وحلقات خنجر في الظلام، وأفلام مغامرات الرجل العنكبوت!

البرنامج العظيم الذي كان يُعْرَض في حلقات على امتداد الولايات المُتَّحِدة يحكي قصة أمريكا خلال المائة سنة الأخيرة، وهو عمل فني يدعو إلى احترام الأمة الأمريكية، ويشير إليك نحو الطريق الذي يجب أن تسير فيه الأمم لتحقق لها مكانًا لائقًا تحت الشمس، أنا نفسي كنت أعرف مادة الحلقات، قرأتها قبل ذلك في كُتب عن أمريكا، ولكن القراءة شيء وتجسيد الواقع في عمل فني رائع شيء آخر، ها هي أمريكا بلحمها ودمها تنتصب واقفة أمامك عارية تمامًا، وصور الحياة تتراءى لناظريك منذ الربع الأخير من القرن الماضي، وبيوت الخشب وحنفيات المياه المتصلة بآبار، وفُرن كَفُرن المرحومة سِتِّي ينفث دخانًا أكثر مما ينفث نارًا ولكن الكل يعمل بلا كلل، حتى النساء والأطفال العَرَق يتصبب من جِباه الجميع في الحقول وفي المصانع والكل يَجوعون مرة ويشبعون مرة، والجميع على باب المولى الكريم، ويسألون الله الستر وحُسن العاقبة، وكان الرُّعب يسيطر على الجميع، فالعصابات هي سيدة الموقف والمُسَدَّس هو القانون، وأهل القرى البعيدة لا يعرفون متى يأتيهم الموت، وكانت العصابات تهاجمهم بغتة، عيانًا مرة كل أسبوع، أو مرة كل يوم، أو مرة في الصباح ومرة في المساء، وحدث في أحيان كثيرة أن أُبِيدَت قرى بأكملها، أو تم القضاء على صنف الرجال فيها ولم يكن هناك قانون موحَّد لمواجهة أعمال الإجرام، بل كان الأمر كله يخضع في النهاية لشخصية القاضي، وأحيانًا كان يُوجَد قضاة أصلهم لصوص يَتَّحِدون مع العصابات ضد المواطنين، وأحيانًا كان من بين القضاة من هو أضعف من مواجهة عِصابات شرسة ومُسلَّحة وكان هؤلاء القضاة يعقدون الجلسات،

ويجلسون وراء منصات القضاء وبعد نظر القضية والمُداوَلة، كانوا يُصدِرون أحكامهم بتبرئة المُجرمِين، وكان المجني عليهم يحمدون الله لأن القاضي العادل لم يوقع الجزاء عليهم! ومع عصابات القتل والإجرام تأسَّست عصابات أخرى، ولكن من نوع آخر قامت هنا وهناك شركات احتكارية، تمد خطوط السكك الحديدية وتستخرج النفط، وتجمع المحاصيل، وتسيطر على قطعان الماشية، وتضع علاماتها المُسجَّلة على ملايين الأفدنة لزرع صنف مُعيَّن ومطلوب! وكانت عِصابات المال تَستأجر وتَستعين بعصابات القتل، وهؤلاء كانوا يُوجَّهون ضد الفلاحين الذي يَرفُضون بيع أراضيهم، أو يُغالُون في ثمن الأرض وبينما ظهرت أعداد لا حد لها من أصحاب الملايين بقيت طبقة عريضة من الأمريكان من أصحاب الفقر، وكان هؤلاء يتجولون في جماعات عَبْر الولايات لجَمْع المحاصيل أو زراعة الأرض، وكثير منهم كانوا يسقطون مَرضى بالسُّل ويموتون في النهاية دون أن يُعْنَى أحد بمجرَّد دفنهم. وعندما هَبَّت موجة البحث عن الذهب في ولايات الجنوب وخصوصًا في ولاية كاليفورنيا، اندفع مئات الألوف من الناس نحو الجنة الموعودة، يبحثون في الأنهار الجارية، وفي أعمال الصحراء، وفي باطن الجبال عن المعدن الذي خطف أبصار الناس وخطف عقولهم، وتسبَّب ذلك الجنون — جنون الذهب — في خراب أمريكا فقد تُرِكَت قطعان الماشية تهيم وحْدَها في البراري! وتُرِكَت ملايين الأفدنة مزروعة بأجود المحاصيل دون أن يهتم أحد بحصدها ونَفقَت ملايين الرءوس من الضأن لأنها لم تجد من يرشدها إلى مَجاري المياه وجَفَّت الأرض وماتت، وأصبحت أمريكا على شَفا هاوية! ولكن ميزة الشعب الأمريكي أن الضَّربة التي لا تقتله تزيده قوة، وأن المحنة تزيده لمعانًا فسرعان ما ينهض على قدميه مرة أخرى ليعاود السعي من جديد! الأمريكيون هم أول مَن اكتشَفُوا النفط وكانت ملايين الأطنان من النفط تُشاهَد عائمة تسبح مع التيار المنحدر مع المَصَب، ولكن أحدًا منهم لم يفهم في ذلك الوقت سِر هذه الظاهرة الغريبة، وظنَّها البعض أنها مياه قَذِرة من مُخلَّفات الإنسان مختلطة بالطين، وأفتى البعض الآخر ربما كانت من مُخلَّفَات بركان ثار وخمد دون أن يدري به أحد! ولكنَّهم لاحَظوا بعد فترة أن النار تَشتعِل على سطح النهر إذا ألقى أحدهم فيه مخلَّفات غليونه، المهم أن أحد الأمريكان راح يُعبِّئ هذا السائل الغريب في زجاجات ويبيعها لأهل القرى المجاورة باعتباره دواء لروماتيزم المفاصل، والأغرب من ذلك أن الناس كانت تشعر بتحسُّن في الصحة بعد فترة من استعمال هذا «العقار»! ثم ما لبث القوم أن اكتشفوا قيمته كوقود، وهنا نَشطَت شركات الاحتكار، وراحت تَستحوِذ على أكبر كمية من الآبار وتبيع أكبر

كمية من الكيروسين، وكان أعظم المُحتكِرين هو المليونير روكفلر، عميد عائلة روكفلر الشهيرة في تاريخ أمريكا، وفي تاريخ شارع المال! وكما قامت شركات النفط قامت شركات السكة الحديد، وشركات الفواكه، وشركات اللحوم، وشركات النسيج، وشركات الأخشاب، وتكوَّنَت الرأسمالية الأمريكية الحديثة ولكن على طريق كان مشحونًا بالعرَق وأحيانًا مُلطَّخًا بالدم! وفي بدايات هذا القرن العشرين تم اكتشاف اختراع السيارة ثم الطيارة، وقامت شركات لهذه وتلك ودخلت أمريكا فترة رخاء لم تشهد مثلها من قبل! وانتشرَت حُمَّى تشييد المدن وشق الطُّرق وبناء القصور الفخمة وتَكوَّنَت في الولايات المُتَّحِدة أغرب وأعجب وأغنى طبقة حاكمة عَرَفها تاريخ العالَم، وسيطرَتْ عدة عائلات على كل شيء من الحديد والصلب إلى التبغ، واستخْدَمَت لفرض، نفوذها وتثبيت أقدامها كل شيء وأي شيء من الرشوة إلى القتل، ومَدَّت نفوذها إلى دُور الصُّحف لتكون لسان حالها، واستأجَرَت العصابات لتكون ذراع حالها! وبدأ في لحظة من اللحظات أن العالَم كله لا بُدَّ من أن يخضع لهذه القوة الجديدة، وأن ينقاد لها!

الفصل الثاني عشر

عصر الاحتكار

ولكن، ولأن الطبيعة لها قوانين، وأحد هذه القوانين يقول: كل حركة لها رد فعل مُساوٍ لها في القوة ومُضاد لها في الاتجاه! فلم يكن ملوك الصناعة والتجارة والتهريب والتهليب يَستريحون على عروشهم حتى ظهرت في الأُفق طبقة جديدة صاعدة من أسفل وضاغطة بإلحاح، كانت الطبقة العاملة في أمريكا قد تَكوَّنَت خلال القحط وسنوات الشقاء ولكنها كانت مكسورة الظهر مُحطَّمة الأضلاع، ثم ازدهرت مع بداية الازدهار وكان يمكن للحركة العمالية أن تنمو ببطء، وأن تَتطوَّر في هدوء لولا أن رجال المال الأمريكان اهْتَدَوا إلى أعجب نظام مالي في التاريخ، وبقدر ما كان النظام الجديد خيرًا وبَرَكة على رجال المال والأعمال كان شَرًّا وَبيلًا على طائفة المستهلِكِين وطبقة العمال، وكان النظام الجديد يهدف وببساطة إلى تجميع وتوحيد كل الشركات ذات النوعية الواحدة في شركة احتكارية، وكان قيام مثل هذه الشركة يمنحها امتيازات أقلُّها خفض النفقات وتحديد أجور العمال وأهمها فرض الأسعار على النحو الذي يحقق أقصى أرباح طافت بخيال أصحاب رأس المال! وكانت شركة «ستاندرد أويل» أول من ارتاد هذا الطريق، وفي الوقت الذي كان فيه مُنتِجُو البترول في بنسلفانيا مشغولين حتى الآذان في منافَسة دموية، كان ثمة شاب هادئ رزين من رجال الأعمال في ولاية أوهايو، ينهمك في هدوء وبدون ضجيج في شراء مَعامل التكرير في الولاية ويَضمُّها في شركة واحدة، ومَضى روكفلر مُنتهزًا فرصة سَنَحتْ له وسيطر على مَعامل التكرير في كليفلاند، ثم واصل سعيه فسيطر على معامل التكرير في نيويورك وفيلاديلفيا وبتسبرج، ثم امتدت سيطرته على خطوط الأنابيب، ولم تَمْضِ عشر سنوات حتى كان روكفلر قد سيطر تمامًا على كل مَعامل التكرير وخطوط الأنابيب في الولايات، وتكوَّنَت من هذا المجهود الشاق شركة «ستاندرد»، وكانت أول شركة احتكارية في التاريخ!

وبقيام شركة ستاندرد أويل انفتح الطريق أمام الرجال ذوي الإرادة الحديدية والطموح اللامحدود؛ فكوَّنوا عشرات من شركات الاحتكار، فأنشأ أرمور وبعض الشركاء شركة لحوم العجول، وسيطرَت جماعة جوجنهايم على مناجم النحاس في أريزونا، وأنشأت أسرة ديوك شركة للتبغ، وما إن حل العام ١٩٠٤م حتى كانت بعض شركات الاحتكار تسيطر على مصالح تبلغ قيمتها ٢٠ بليون دولار بقيمتها في ذلك الوقت، وتكوَّنَت طبقة من المُساهِمين والمديرين فاقَت سُلطتها وثرواتها سُلطات وثروات الأمراء والملوك، وأصبح المواطن الأمريكي يعيش حياته مربوطًا إلى إمبراطورية هؤلاء القياصرة الجُدد! وبفضل شركات الاحتكار توحَّدَت خطوط السكة الحديد مما أتاح لها خدمات أفضل، ولكن أكبر الضربات الناجحة في عالم الاحتكار كانت في مجال البنوك، وكان بيت مورجان هو أعظم هذه البيوت وأقواها على الإطلاق، وفي بداية هذا القرن لم يكن هناك مشروع اقتصادي أو صناعي في الولايات المُتَّحِدة ليس لبيت مورجان علاقة به، وبلغ رأسمال مورجان ٢٥ بليون دولار! مما دفع الرئيس الأمريكي ويلسون إلى القول بأن أعظم احتكار في هذه البلاد هو احتكار المال، ولكن هذا التضخُّم الرهيب والمخيف لشركات الاحتكار جعل الحكومة الأمريكية نفسها تشعر بالخوف من هذه الشركات التي أصبحت حكومة داخل الحكومة، بل إن سُلطَتها فاقت سلطة الحكومة وأصبَحَت تُملي عليها سياسات معيَّنة، وتفرض رغباتها على السلطات التشريعية نفسها، وكان الخوف الذي انتاب الحكومات الأمريكية قد تسرَّب إلى نفوس الملايين من الأمريكيين عندما نظروا حولهم، وشاهدوا أن معظم مصادر الثروة الطبيعية، والصناعات، والسكك الحديدية، والمنافع الأخرى كان يسيطر عليها حفنة من الرجال لمصلحتهم الخاصة وليس لمصلحة المجتمع، بدَءُوا يَشكُّون في أن الديمقراطية يمكن أن تبقَى وتدوم؛ فالنَّفَقات الباهظة والتمييز في العمالة، واغتصاب الأراضي جملة، والأساليب السيئة التي اتبعها روكفلر، وكارنيجي في سحق المنافِسِين، والقوة الوحشية التي كانت تستخدمها الشركات الضخمة في قهر العمال وإخضاعهم، ومحاولات مُحامِي تلك الشركات وهم يبحثون عن ثغرات في التشريعات الموجودة، وتحايلهم على النُّظم الضريبية، كل هذا أثار موجة من الرعب في القلوب، وأشاع الأسى في نفوس الجميع! وهبَّت حكومات الولايات تضع القوانين التي تحظر قيام شركات الاحتكار، وتقدم المليونير «بيتر كوبر» للترشيح في انتخابات رئاسة الجمهورية على أساس برنامج «العملة الورقية الخضراء» يُحذِّر من أن الخطر الحالي على نُظمِنا الحرة لا يقل شأنًا عمَّا كان هناك من خطر في بدء الثورة ...! كما أطلق صيحتَه المعروفة «أن أرستقراطية تقوم على أساس

المال هي أسوا أنواع الأرستقراطيات»، ونفس الإحساس بالخطر دفع الرئيس «كليفلند»، إلى الصراخ عاليًا: «إن الشركات الاحتكارية التي كان ينبغي أن تكون مخلوقات تَخضع للقانون وتخدم الشعب، أصبحت بسرعة أسيادًا للشعب، وفوق كل النُّظم والقوانين لتنظيم الأحوال في البلاد وكان أخطرها قانون أن أي ممتلكات تتصل بالمصلحة العامة أو مُخصَّصة لمنفعة الجمهور تكون خاضعة للتنظيم بواسطة الحكومة»!

وكان المَغْزى وراء هذه القوانين، والدَّرس الذي يجب أن نتعلمه جميعًا، أن التنظيم ليس ضد الديمقراطية، وأن تَدخُّل الحكومة مطلوب حتى في ظِلِّ أعظم النُّظم ديمقراطية، وفي مجتمع هو أكثر المجتمعات حرية؛ لأن تَرْك الأمور تسير حسب المزاج، ووفق مصالح الأشخاص تنتهي حتمًا إلى فوضى لا يعلم مداها إلا الله وإلى ثورة قد لا تستطيع أقوى الحكومات في العالَم على مواجهتها. ليتَنا تعلَّمْنا من التجربة الأمريكية ما ساعَدَنا على تنظيم عملية الانفتاح، ولا أعتقد أن هناك انفتاحًا أكثر من الانفتاح الأمريكي، ولا رأسمالية أعظم من رأسمالية أمريكية، ولا مكاسب «على ودنه» قَدْر المكاسب في السوق الأمريكية! ولكن كان لا بد من التنظيم، ومن وضع اللوائح والضوابط وإلا تحوَّلَت هذه الشركات الاحتكارية إلى غول يأكل الوطن حسب تعبير أحد زعماء نقابات العمال الأمريكية الذي قال: «لقد حَلَّت الشركات الاحتكارية محل العصابات، وصار أخطر الخارجين على القانون هو حضرة صاحب العصابة المدير!»

ولكن شركات الاحتكار الكبرى سواء بعد التنظيم أو قبله كان لها الفضل المباشر في خلق طبقة عُمَّالية كبرى في الولايات المُتَّحِدة، فبدون قيام هذه الشركات لم يكن ممكنًا حَشْد كل هؤلاء العمال في ظل شركة واحدة، وبقدر تَضخُّم الشركات الاحتكارية كان تَضخُّم عمالها — أيضًا — وكانت المفارَقات الضخمة سببًا آخر في تَطوُّر الحركة العمالية. لقد كان العمال طرفًا أساسيًّا في نمو الأعمال الضخمة، ولكنهم كانوا طرفًا مُهملًا عند تقسيم الأرباح، وكان أغلبهم يعملون في ظل ظروف شديدة القسوة داخل مصانع شديدة الحرارة، وتتسم بالضوضاء وفساد الهواء، وكانت إصابات العمل من المسائل العادية التي لا تُولِيها الإدارة أدنى اهتمام، وحتى حوادث الموت بسبب العمل كانوا يَدفعون مقابلها تعويضاتٍ تافهة لا تكفي مصاريف الجنازة، وخارج المصانع كان العمال يَتكدَّسون في أحياء قذرة، ولم يكن للعمال ممثلون في المجالس التشريعية إلا عددًا أقل من القليل، ولم يكن هذا العدد كافيًا لإعلان رأي الطبقة المسحوقة أو الحصول على مكاسب لها! وخلال الفترة من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٠م تدفق أكثر من عشرين مليون مهاجر للبلاد، وكان

كل هؤلاء في لهفة للعمل في المصانع والمناجم، ومَهمَا كان الأجر وتحت أي ظروف، وبسبب تدفُّق الهجرة ازداد الهبوط في الأجور، والهبوط في المستويات، وانتهى الأمر باتحاد العمال إلى الشَّلل التام، وبالرغم من تلك الظروف التعسة فقد كافَح العمال ببسالة، وخلال ربع قرن كان أول الإضرابات التي قام بها هؤلاء بلغت ٣٧ ألف إضراب، وكان نتيجة هذا النضال المستمر حصول العمال على مُعْظَم حقوقهم في عام ١٩٠٠م، وقُبَيل بدء الحرب العالَمية الأولى كان محظورًا تمامًا في كل الولايات المُتَّحِدة استخدام الأحداث في المصانع، كما حصلَت النساء العاملات على حق إجازة الحمل.

الفصل الثالث عشر

حكومة المافيا

... وإذا كان الأمريكي الأبيض هو فتوَّة العالَم، وهو الذي يُلقي الرعب في قلوب أهالي الكاريبي، بنفس القَدْر الذي يلقي فيه الرعب في قلوب أهالي بحر الصين، والسبب أنه فتوَّة من نوع جديد، فهو لا يُلوِّح في يده بشومة تكسر الأدمغة والضلوع، ولكنه يتسلَّح بقنابل ذرية، وقنابل هيدروجينية، وقنابل نظيفة تمسح صنف البشر، ولكنها تُبقي على الجدران، وعلى أرصفة الشوارع! ولكن حكمة الله أنه في داخل أمريكا نفسها يعيش الأمريكي الأبيض كالفار المسلوخ، وصنف البورتوريكو هو بعبع الأمريكي وعفريته الأزرق، وهؤلاء العيال وارد بورتوريكو وهم ملوك أمريكا بلا مُنازع، وهم يعملون في أحقر المهن. كخدم في الفنادق، وعمال في البارات، وحرَّاس للمباني، وصياع في الميناء، ولكنهم في الشوارع أصحاب جلالة وسعادة ومقام رفيع. ويكفي ظهور بورتوريكي واحد فيلزم الجميع الأدب، حتى الزنوج يَحسَبون ألف حساب للبورتوريكي الطيب، لأن يده كالمطرقة، وسلاحه الأبيض يسبق لسانه عند المناقشة والحوار. وسيئ الحظ من يختلف مع البورتوريكيين؛ لأنهم يعيشون في أمريكا وكأنهم في عصر القبائل، وعندما تنشب المعركة يَتنادَون للقتال، وعندما يصيح أحدهم وابورتوريكاه! ستزحف جحافلهم من الحواري والأزِقَّة ومن فوق الأسطح ومن تحت الأنقاض. وفي بورتوريكو حركة وطنية ثورية تُطالِب بالاستقلال، وتعمل طلائعها تحت الأرض داخل الولايات المُتَّحِدة، تُفجِّر الطائرات في الجو، وتنسف القواعد العسكرية في الأرض، وتُثير الرعب والذُّعر في قلوب قادة البنتاجون. وبرغم المخابرات المركزية، والمخابرات الفرعية، وبرغم العقول البَشَرِية والعقول الإلكترونية، لم تستطع السُّلطة القبض على أحد أفراده، بالرغم من أن التنظيم يعمل داخل الولايات المُتَّحِدة منذ أكثر من عشر سنوات، ويعمل في حفظ الله وسلامته! وإذا كان البورتوريكو هو البعبع رقم اثنين، ويأتي الإيطالي بعد الزِّنْجي. وهؤلاء الطليان

هم أول من أدخلوا الجريمة المُنظَّمة في أمريكا، وأول من أسَّسوا عصابات المافيا، وفرضوا من خلالها الذُّعر والرعب في كل الولايات، وجاء يوم على أمريكا كانت عصابات المافيا هي الحكومة الحقيقية هي التي تَتحكَّم في انتخابات الرئاسة، وهي التي تُمهِّد الطريق أمام السيناتور للوصول إلى الكونجرس، وهي التي ترسم السياسة للوزراء، وهي التي تجلب المُخدِّرات من خارج الولايات إلى داخلها، وهي التي تسيطر على كل شيء في البلاد، وتشتري الشرطة، والصحافة، والنواب. ويأتي المكسيكي بعد الطلياني، ويحتل الهندي الأحمر ذيل قائمة الأصناف التي يخافها الأمريكي الأبيض، ولكن صنف الأمريكي الأحمر نادر، وبعضهم لا يزال يحمل روح التَّحدِّي، ويستعد للثأر، ولكن أغرب شيء اكتشفتُه في أمريكا هو أن العربي اليمني هو بُعبع جميع الأمريكان في مدينة ديترويت. وهناك ستجد اليَمنِي أمامك في كل مكان؛ في المصانع، في المزارع، في الشوارع، وربما استطاعوا أن يدفعوا بمُمثِّليهم إلى منصب محافِظ الولاية، والله على منظر اليمني وهو يتمشى إفرنجي على أرصفة ديترويت في المساء بملابس اليمن التقليدية، الملابس المُزَركشة، والعمامة الملفوفة، بعناية والخنجر الذي يتوسط الحزام. وأبناء اليمن هم أنشط جالية عربية على الإطلاق. منهم العامل الذي يطفح الدم من طلوع الشمس إلى طلوع النَّجمة، والتاجر الذي يتخاطب بالتِّلِكس عَبْر البحار. وما أكثر العرب في أمريكا، ولكن ما أكثر مشاكلهم، وأعجب شيء أن العرب كما في خارج بلادهم شعوب وقبائل، ليس ليتعارفوا، ولكن ليَتقاتَلوا، أيامهم ولا يوم داحس والغبراء، وحربُهم ولا حرب البسوس، وليس أشرس ولا أتعس من الحرب الدائرة بين العرب والعرب داخل الولايات المتحدة؛ الشيوعي ضد البعثي، والبعثي ضد الناصري، والناصري اليساري ضد الناصري اليميني، والتَّقدُّمي ضد الرجعي، والرجعي ضد الوطني، وأعضاء الجماعات الإسلامية ضد الجميع! ولو نَصْف الحرب الدائرة الآن بين بعض العرب والبعض الآخر، لو نَصْفُها فقط بين صنف العرب وصنف اليهود في أمريكا، لأنجزنا أشياء عظيمة، ولَحقَّقْنا نتائج باهرة. ولكن أخطر من هؤلاء العرب المغتربين عرب آخرون من طراز مختلف، هم العرب اليائسون.

ولأنهم يائسون فقد أعطوا ظهورهم ليس للقضية، ولكن للعروبة نفسها، ودفعهم هذا الموقف ليتحوَّلُوا إلى أمريكان، وليس بالجنسية فقط، ولكن بالمفهوم والعقلية والمزاج. واحد من هؤلاء قابلْتُه في مدينة دالاس مهنته جواهرجي ومتزَوِّج من أمريكية، ويملك قصرًا فخمًا في ضواحي المدينة، ودخلُه لا بأس به ويتكلم عربية سليمة، ولكنه يُفضِّل تطعيمها عند الحديث بكلمات إنجليزية بطريقة أمريكاني، قال الأخ الجواهرجي العربي

الأمريكي: قبل أن أحضر إلى أمريكا حاولتُ الاستقرار في بلد عربي، ولكني قُوبِلتُ هناك أحيانًا بالقسوة، وأحيانًا بالاحتقار! ولكني هنا — هكذا يقول الأخ إياه — أحسستُ بالانتماء لهذه الأرض لحظة وضعتُ قدمي عليها، كان الوُدُّ هو أول اللقاء وآخره كان الاحترام. واحد آخر يعمل سائقًا لتاكسي، والتاكسي تملكه زوجته الأمريكية، وهو يُحقِّق ربحًا لا بأس به، ويعيش عيشة لا بأس بها، ويكره العرب أضعاف كراهيته لليهود، وأول عبارة نطق بها عند لقائنا «لو كان صباعي عربي لقطعته» ليه؟ لأنه كان في بلد عربي فضاق به الحال وفاض به الكيل، فسب «ديك» أبو الحكومة. وهي عادة عند الأخ إياه، كلما تنرفز سبَّ «ديك» أي شيء وكل شيء، «ديك» أهلك، ديك النهار، هايدا ديك الشغلة هايدي، إنها نكتة أكثر منها موقف، ولكن بعض حكوماتنا لا تعرف المزاح، ولا تحب الهزار، ونهار أبوه أزرق، من شرطي إلى مركز شرطة إلى سجن تحت الأرض، إلى محكمة سِرِّية، إلى خيانة عظمى، إلى مصير أشبه بالموت، ولا ينقذه إلا انقلاب — أستغفر الله — أقصد ثورة، فالحمد لله كل انقلاباتنا ثورات وكل عساكرنا ثُوَّار، وكل أحاديث زعمائنا برامج للتنمية والتعمير والإنشاء!

وعندما انطلق هاربًا من بلاده بلاد العرب لجأ إلى بلاد الأمريكان، وهناك وجد الولد إياه نفسه وعثر على ذاته. فهو هنا يسب ديك الحكومة، وديك رئيس الولايات المُتَّحِدة، وديك الولايات كلها فردًا فردًا، والحاضر منهم يُعلِم الغايب، ومع ذلك فلا تحقيق ولا شرطة ولا سؤال! فكل إنسان على هذه الأرض حُر فيما يعتقد، وحُر فيما يقول، يسب ديك الحكومة، يسب ديك الناس، فليس في الأمر جريمة، ولا مُخالَفة، ولا يحزنون.

واحد آخَر من هذا النوع الْتَقيتُ به في ولاية كاليفورنيا، هاجَر إلى أمريكا؛ لأنه اضْطُهِد في بلاده فهو صاحب رأي مخالِف لرأي السُّلطة، وهو عندما كان في بلاده كان لا ينام الليل، فهو يهب مذعورًا كلما توقَّفَت أمام بيته سيارة، وينتَفِض مذعورًا كلما طَرَق الباب طارق، ويرتعش بدَنُه كلما دَقَّ جرس التليفون، وتَسلَّل الأخ إياه هاربًا، ولجأ إلى بلاد الأمريكان، والله على أمريكا وعلى حلاوتها، فهو هنا لا يخاف شيئًا إلا الحوادث، ولا يهاب أحدًا إلا اللصوص، ولكن الحكومة لا تُخِيف أحدًا، ولا جريمة على من يعمل ضدها، أو يهتف بسقوطها، ولذلك هو أمريكي جدًّا حتى النخاع، أما هؤلاء الهَمَج يقصد أهلنا. وأما هذه الخرابة يقصد بلادنا، فهو منهم ومنها بَراء!

هذه النماذج هي ظاهرة عامَّة بين العرب في أمريكا وبعض هذه النماذج لا أَمَل منه ولا أمل فيه، والنتيجة أنهم ضاعوا إلى الأبد. ولكن هناك من بينهم من يقف على

أُهبة الاستعداد ليكون في صَفِّك إذا حقَّق العرب أي انتصار، أو أَنجَزوا أي نجاح، وإذا عادت الصفوف، ولكن في أيام الانحسار ستجدُهم هكذا يُنكرُون كل شيء، ويَسبُّون كل شيء، ويحتقرون الأرض وما عليها! في خلال حرب أكتوبر وعندما تَحقَّق لهؤلاء أن النصر في جانب الجيوش العربية، كان هؤلاء أول من خرج للشارع يجمع التبرُّعات، ويعقد الندوات، ويقود المظاهَرات.

وعندما عادت دولة اليهود إلى الغطرسة، عاد هؤلاء إلى الانكفاء وتَوارَوا في الظِّل، ودخلوا في البيات الشتوي، وإلى حين يستطيع العرب تحقيق نَصْر آخَر! هناك نوع آخر من العرب الْتَقيتُ به في أماكن متفرِّقة في الولايات المُتَّحِدة، عرب مُتطرِّفون ومُضحكون كذلك. بعض هؤلاء يرى أنه لا خلاص ولا أمل إلا بتحقيق الاشتراكية، وتوزيع الثروة، وتعميم الثورة ولو أدَّى الأمر إلى إغراق الأرض بالدم، ولا طريق من وجهة نظر هؤلاء إلا بضرب الشواشي العليا للبرجوازية مُتضامنة مع الفلول الانهزامية، متواكِبَة مع الاستيطان الانغلاقي من أَجْل تحقيق فائض القيمة للوصول إلى المجد الشنكحوري المتهافِت على الحنجوري! وتسأله وما الحل؟ فيجيبك لا حل إلا بأن يقفز تنظيمه على الحُكم، ويتولَّى أمور البلاد والعباد! وأين هذا التنظيم؟ وتكتشف أن التنظيم هو هذا السيد الفاضل، أقصد «الفاضل عدة ساعات»، فستكتشف أنه يهدف في النهاية إلى نتيجة أقل من النتيجة التي أسفرت عنها كامب ديفيد! فالمشكلة ليست في إسرائيل كشعب ولكنها في إسرائيل كدولة؛ لأنها — من وجهة نظر الأخ إياه — دولة الترجمة الحقيقية لشعار الاستعمار هو أرقى مراحل الرأسمالية، والكفاح ضد إسرائيل الدولة ينبغي أن يبدأ من إسرائيل، ومن الوطن العربي أيضًا، وعندما تسيطر طبقة العمال في إسرائيل وفي الوطن العربي — أيضًا — ستنتهي المشكلة حتمًا؛ لأنه إذا كان ليس بين الخَيِّرين حساب فليس بين الإخوة العمال مشاكل! وهذا الأخ إياه وأمثاله لا وزن لهم ولا قيمة؛ لأن بعضهم عُملاء بأجر، ومُعظمُهم أطفال في مدرسة رياض الأطفال السياسية. وهؤلاء كان لهم صوت مسموع في الوطن العربي خلال حقبة الأربعينيات ولكنهم الآن تغيَّروا بعد أن اكتشفوا الحقيقة، واختفت القيادات اليهودية من حركتهم. ولكن الذين ينبغي أن نهتم بهم هم هؤلاء الملايين من المواطنين العَرب في الولايات المُتَّحِدة الأمريكية الذين لا انتماء لهم ولا اتجاه.

هؤلاء الذين الْتَوت ألسنتهم وأصبحوا يَتكلَّمون العربية بلهجة أمريكية، حتى الدِّين نفسه، أصبح في خطر؛ فَهُم يتزوَّجون من أمريكيات ويتركون لأبنائهم حرية الاختيار، هؤلاء سنخسرهم حتمًا إذا لم نَهتم بهم، ولكن ما هو الاهتمام الذي يجب أن نحطيهم به؟ هذه قصة أخرى.

الفصل الرابع عشر

«أمريكا يا ويكا»

... وأخشى أن يفهم البعض دعوتي للاهتمام بالعرب الأمريكان أنني أطالب بالاهتمام بهم سياسيًّا، أو إيفاد البعثات لتوعيتهم من أجل سلوك الطريق النِّضالي الاشتراكي الوحدوي المُتعانق مع الفجر القادم والبزوغ الآتي تحت قيادة الزَّعيم المناضل، أو الزعيم المجاهد، أو القائد المُقاتل، أو الرئيس المُلهَم، أو الرئيس البطل، إلى آخر هذه التسميات التي شَبِعنَا منها على مدَى نصف قرن من الزمان، أنا لا أقصد الاهتمام بالعرب الأمريكان على هذا النحو، ولكن أقصد الاهتمام بهم عن طريق تنظيمات تَضمُّهم وتربطهم بالعروبة كجنس، وبالعربية كلُغة، وبالإسلام كَدِين، وهي مسألة ضرورية للغاية وفي الدرجة الأولى من الأهمية أن يكون الاهتمام بهم على المستوى القومي، وأن يكون الهدف هو خدمة قضايا العرب الرئيسية. ويمكن استخدامهم بعد ذلك كوسيلة ضغط على صانع القرار الأمريكي، وحبَّذا لو بدأْنا بإنشاء مَجالس عربية للمحافظة على اللسان العربي في الأجيال القادمة. وأظن أنه عارٌ وعيب — أيضًا — أن ينشئ العرب عدة نوادٍ ليلية وكباريهات وبارات في واشنطن ونيويورك ولوس أنجلوس، ولا يُنشئون مدرسة واحدة في طول الولايات المُتَّحِدة الأمريكية وعرضها! ثم أين المساجد والمراكز الإسلامية؟ وأين الدعاة والرُّسل يذهبون ويعودون بيننا وبينهم؟ وأين الندوات والمؤتمرات؟ ليبقى الجسر موصولًا بين عرب الوطن وعرب الولايات ... ولقد رأيت في لوس أنجلوس مثلًا حيًّا مصريًّا لحمًا ودمًا، وكأنه جزء من حي شُبرا، نفس الزِّحَام ونفس الروائح ونفس الأطفال في الشوارع، فلو قُدِّر لك وذهبتَ إلى هناك فستسمع في دروب الحي نفس الشَّتَائم، وستلتقي ببائع البلح، وبائع الجوافة، ودكاكين تَقلي الطعمية وتدمس الفول، وستَسمعُ أغاني عبد الوهاب، وأم كلثوم، ومحمد طه، وشفيق جلال، وعبد الحليم حافظ. وفي ولاية أوهايو وجدتُ عربًا هم نموذج أعظم على ما نستطيع تحقيقه لو أحسَنَّا العمل، وأخلصنا النية وعقَدْنا

العزم على أن نخدم العروبة والإسلام. في مدينة سنسناتي عاصمة الولاية وجدتُ رابطة عربية أركانها عرب أمريكان، طبيب عِلم النَّفس مصري، وابنته الطالبة تدرس الفلسفة في جامعة الولاية، وطبيب بَشري من فلسطين، وطالب بعثة عراقي، وتاجر سوري، ورجل أعمال من الإمارات، وشاب ليبي، وسيدة مَغربية، وزُول من السُّودان، وهي مجموعة مُنسجِمة، ومتكاملة، وتصدر مجلة شهرية بإمكانات قليلة، وأحلام كبيرة، ولقد اعتذرَتْ بنتُ الدكتور الفلسطيني (اعتذرت لأونكل سعدني) «بيكوز شي هاف توجو، أند شي هوب توميت مي أجين» الكلمة الوحيدة التي نطقت بها بالعربي كانت السعدني! بنت الطبيب المصري وهي المُشرِفة على المجلة الشهيرة كانت تبكي كلما جاء ذكر مصر، فهي لم تَرَ مصر في حياتها، والبلد العربي الوحيد التي رأته كان العراق، واندهشَت عندما رأت في العراق أناسًا وسيارات وعمارات وحدائق، فقد كانت تظن أن بلاد العرب صحراوات، بَدْو، وقوافل، وجِمال، ومَضارب شَعْر، وقَيس يغني على ليلاه!

في مدينة «ليويزفيل» بولاية كنتاكي، الْتَقيتُ بمصريين طيبين يعملون موظفين في الصباح وتُجارًا بعد الظُّهر، وهم يُتاجرون في بضاعة خان الخليلي؛ عُقود، ومسابح، وتماثيل، وجَعارين، ويكسبون دولارات قليلة، ولكنهم عند التَّحويل تصبح نقودًا مصرية كثيرة تُعينُهم على أداء الواجب نحو الأهل في الوطن الأم! وهُم سُذَّج في السياسة، ويتصورون أن بلاد العرب تعوم على بحر من الفساد، ويَخشَون من التأميم والمُصادرة مع أنهم لا يملكون سوى بدلة واحدة، وبعضُهم يرتَدي «جاكتة شكل» و«بنطلون شكل» وحذاء أغلب الظن أنه من وكالة البلح، وعندما تحدَّثْت معهم عن ضرورة عمل عربي مشترَك في أمريكا! اقتنع بعضهم بمنطقِي وتَشكَّك البعض الآخَر ولديهم بعض الحق؛ حيث إن كل عربي في أمريكا مشغول بنفسه وبمصالحه ولا شيء آخَر! ولكن أغرب من قابلتُ من العرب في أمريكا، بنت مصرية تعمل راقصة في نادٍ ليلي في سان فرانسسكو، وبنت أردنية ترقُص في نادي علي بابا بلوس أنجلوس، وهي أول مرة اكتشفتُ أن الأردنيَّات ينافِسن المصريات في «هَز البطن!» البنت المصرية تعمل راقصة في الملهى ليلًا ومُدرِّسة رقص شرقي في معهد أمريكي نهارًا، وهي تقول إنها جاءت إلى أمريكا بعقد كأستاذة للرقص الشرقي، فهي سفير للفن العربي في بلاد العم سام، ثم اكتشفَت وهي في أمريكا أنها تستطيع أن تُحقِّق دخلًا آخر من خلال عملها في الملاهي ليلًا فلم تتردد، ولكن الشيء الذي أثار الراقصة هو أن جميع رُوَّاد الملهى من العرب، بعضهم من الخارج، وبعضهم من بلاد تَرفَع شعار الثورة الي ما يغلبها غلَّاب وتنادي بتحقيق الاشتراكية وتحرير الوطن

من النهر إلى البحر؛ وهي لأنها تعيش في العالَم السفلي، فهي لا ترى أمامها أي وميض من النور، وليس هناك أي أمل، وإذا كان العرب يُبعثِرون أموالهم في علب الليل، فماذا تريد من راقصة أن تفعل؟ «يا خويا خلِّي الطابق مستور وخَلِّينا في حالنا» هكذا قالت الراقصة المصرية وهي تستأذن في الانصراف ... فقد دقَّت ساعة العمل الثوري! أما البنت الأردنية فقد كانت ترقص في ملاهي دمشق، ثم انتقلَتْ إلى ملاهي بيروت قبل أن تشتعل النار في بيروت وتأكلها، وكان لها أكثر من تجربة مع زبائن عرب أصحاب نفوذ وأصحاب قوة، وكانوا يَدخلون الملهى وفي جيوبهم مُسَدَّسات، فهم مناضِلون أيضًا! ثم عَبَرت البحر إلى أمريكا لتكتشف أن كل عربي هنا عالم لوحده، وكل عربي جزيرة منعزلة، وبعض العرب يستأجِرون الملهى كله ليلة واحدة لينعموا فيه وحدهم ومع أصدقائهم وينفقوا عشرات الألوف من الدولارات، ثم غَمزَت البنت الأردنية بعينها وهي تقول: «هل تعرف أن صاحب الملهى يهودي وأسرته لا تزال تعيش في تل أبيب؟»

ولكن في المقابل هناك عرب أفاضل، ولكن قلة، ويبذلون جهودًا عربية صادقة؛ وإن كانت ضعيفة، اتحاد الطلبة العرب يحاول ولكن وسط غابة من المُشكِلات والمعوِّقات، وأسوأ ما في الاتحاد أن الأيديولوجيات فيه على وِدنه، والنِّقاش داخله يَجعلهم كخَلية نَحْل ولكن برطانة لا يفهمها العربي العادي، وفي كل فترة يتغلَّب تيار سياسي على الآخر ويحاول أن يجرهم خلفه، بعض التيارات تحاول فَرْض رأيها بالعافية وبالفلوس، والخلاف الحقيقي ليس على برامج أو مبادئ، ولكن وسط جَلَبة من المناقَشات البيزنطية؟ ويبدو أنهم لم يَصلوا إلى حل بعد؛ لأن البِيضة لم تَنطق والفرخة لم تتكلم! وهناك عدة روابط عربية، وكل منها تُكافِح في طريق مُعادٍ للأخرى ومُضاد لها! وهناك عرب «صُيَّع» يبدءون الطريق دون مرشِد أو مُعِين، وخطَر سقوط هؤلاء في قبضة الأعداء وارد ... وحصل! وهناك قصص يتداولها العرب في الولايات، وبرغم قُبح الصورة وسوء الحال، فان العزاء الوحيد هو أن حال العرب في الولايات المُتَّحدة هو انعكاس لحال العرب في الوطن، ولو انصلح حال العرب في داخل الحدود، لانعكس الحال في الخارج، ولو زعيم قام بجَمْع شتات الأمة ويدعو الجميع إلى النهوض، ويمنحهم الأمل في عالَم أفضل، لو حركة انتصار واحدة على المستوى القومي، لو خطوة شموخ واحدة في مُواجَهة العدو الإسرائيلي، لو لَحْن واحد يعزفه الجميع من الخليج إلى المحيط، لو حدث شيء من هذا لَهبَّ جميع العرب في الخارج، وانتظَمُوا في صف العروبة وزحَفوا تحت لوائها، ولكن «لو» للأسف الشديد تفتح عَمل الشيطان، وهي كلمة صغيرة ولكنها تحتاج إلى مُعجزة لكي يصبح لها محل من الإعراب.

ولكن صبرنا على الكارثة أنه حَدثتْ معجزات كثيرة لشعوب كانت مِثلَنا من قبل، فهكذا كان الفيتناميون في فرنْسا قبل الحرب العالَمية الأخيرة، خدمًا في المطاعم، وقَوَّادين في البيجال، وجواسيس للمكتب الثاني الفرنسي، فلمَّا جاءهم هوشي منه، انكشف الغطاء عن المعدن الفيتنامي الحقيقي، فإذا به ذهب رنان، وحديد صلب لا يلين، وهكذا أيضًا كان صنف الجزائري في باريس، كان من بينهم سماسرة حي البيجان، وسائقو التاكسي في الليل، وخَدَم فنادق ونوادٍ وصالات قمار، فلمَّا انطلقت رصاصات الثورة في سماء الجزائر، وهَبَّ بن بللا ورفاقه انطلق هؤلاء الذين كانوا مُجرَّد حُثالة ليصبحوا أُسودًا وأبطالًا، وكانوا أعظم احتياطي للثورة، وأقوى أجنحتها على الإطلاق، وفي أيام المد العربي في الخمسينيات وحتى منتصف الستينيات، كان كل عربي في أوربا وأمريكا قنبلة موقوتة، وكانت أجهزة الأمن في بلاد الخواجات لا هَمَّ لها إلا مراقبة العربي، حتى من ذهب إلى هناك للمتعة! ذلك لأن الأمم عندما تخيب، تخيب بكل فصائلها، وعندما تهب، تهب بكل أجنحتها، وتسألني ومتى يكون النهوض والنفير؟ وأجيبك عندما تصبح أمور العرب في أيديهم، وحدودهم مفتوحة أمام أصدقائهم، وبنادقهم مصوبة نحو أعدائهم، وعرباتهم الملغومة تنفجر داخل بلاد الذين هزموهم وأذلُّوهم، عندما يكون العالِم في مَعْمله، والزارع في حقله، والإداري في مكتبه، والكاتب في موقعه بين الناس، والفدائي عند خط النار وليس في فندق خمس نجوم، وعندما تكون الشعارات مُطابقة للأعمال، والأعمال سابقة للأقوال، وعندما تكون الحكومة وكيلة عن الشعب، والشعب فوق الحكومة، عندما يأمن العربي في أرضه فلا يَخاف طارق الليل ولا جاسوس النهار، عندئذٍ تُشرق الشمس على أرض العرب، ويتحقق النصر اللي طال الشوق إليه، ولن نكون في حاجة عندئذٍ إلى رأي عام دولي، ولا أمم متحدة، ولا مجلس أمن نرفع إليه شكوانا، كما تفعل المُطلَّقات، والأيتام، وأبناء السبيل!

والآن، لقد كنا في رحلة في بلاد العم سام، ولكن هموم الوطن شَدَّتْنا إليها، ولكن لا بد لنا من وقفه نُلقي فيها نظرة أخيرة على البلاد المترامِية الأطراف من المحيط إلى الخليج، نظرة أخيرة قبل أن نرفع قُبَّعتنا وداعًا ونرحل بعيدًا عن بلاد الذهب الأصفر، والذهب الأسود، والتراب الذي ينافس الذهب في البورصة وفي الأسواق!

الفصل الخامس عشر

تدريب وتهليب ... وأبطال!

كل شيء في أمريكا تِجارة ... الرياضة والسلاح والحب ...! المهم أن يكون معك فلوس. وأن تدفع الثَّمن عند الاتفاق، ومن حقك بعد ذلك أن تحمل التجارة وتمضي إلى المكان الذي تريد! وقد تكون البضاعة دبابة، أو غوَّاصة، أو امرأة في طعم القشطة وفي عُمر الورد، أو لاعبًا رياضيًّا شهيرًا ...!

والرياضة في أمريكا حق لكل مُواطن كالماء والهواء وأكل الذرة المسلوقة، وهي في التنس تتقدَّم الدول، وفي السباحة هي ست الكل، وفي ألعاب القُوى هي أعظم من الكل، وفي الملاكمة هي الكل في الكل!! وهي حق من حقوق الجميع حتى المواطن في السجن، وحتى الغريب اللاجئ ... وحتى الزائر عابر السبيل! وبلغَت نفقات الرياضة في السجون مليار دولار في عام ١٩٨٠م وبعض أبطال الملاكمة من المحترفين هم رُوَّاد سجون، وخِرِّيجو ليمانات، وأصحاب سوابق، ليس لهم أصل ولا فصل ولا جذور!

وقصة الولد ليستون شرير الحلقة لا تزال عالقة بالأذهان كان زعيمًا من زعماء البلطجة، ونجمًا من نجوم الليل، مارَس النَّشْل فترة، وقضى فترة من حياته فتوَّة في حي من أحياء البغاء، واشتغل لِصًّا محترفًا في عصابة تهاجم المنازل والبنوك، وتعلَّم الملاكمة في السجن، وفي أوائل الستينيات لمع نجمه، وانتزع بطولة العالَم، ولم يهنأ بها ستة شهور وفجأة أطاح به محمد علي كلاي، فترك الحلقة وعاد إلى الشارع من جديد ... والتحق بالعصابات من تاني، ولكنه عندما عاد لم يكن ذلك اللص القديم الذي يعرفونه، عاد أكثر غرورًا، وأشد شراسة؛ فقتله رجال العصابات! وقيل إنه مات من شدة السُّكر، وقيل إنه انتحر، ولكنه ذهب بسِرِّه إلى قبره ولا يعلم الغيب إلا علام الغيوب!

ولد آخر من أبطال الملاكمة قضى حياته كلها في السجون، وتدرَّج فيها كأي مُجرِم من الملجأ إلى إصلاحية الأحداث إلى السجن إلى الليمان إلى مُعتقَل سنج سنج الرهيب، الذي

لم يخرج منه أحد خلال ثلاثين عامًا طويلة إلا لتلبية نداء ربه إلا هذا الولد «كونتي» الذي خرج من السجن لملاقاة حَظِّه، ولقد سمحوا له بالخروج؛ لأنه أبدى طاعة عمياء طول فترة سجنه، وسلك سلوكًا ممتازًا لا غبار عليه، ونبغ نبوغًا عظيمًا في فن الملاكمة حتى طمع المُشرِفون على السجون أن يفوز سجين آخر بلقب بطل العالَم، وقَبِل محمد علي كلاي أن يُنازِل الولد السجين، وخرج الولد المحظوظ إلى حلبة الملاكمة ليقابل بطل العالَم، وأبدى خلال الملاكمة قُوَّة على التحمل، ولكن حكم الحلبة اضطر لوقف المباراة بعد الجولة السابعة ... فقد وقف الولد على الحلقة كالشوال يتلقَّى اللكمات دون أن يتحرك ... فلم يكن قادرًا على أن يرفع يديه ليدافع عن نفسه، ولم يكن قادرًا حتى على السقوط ... والرياضي في أمريكا يُباع ويُشترَى كأنه جاموسة في سوق الثلاثاء ... وليس له الرأي عند البيع أو عند الشراء ... هل تعرفون «أسامة خليل» نجم فريق الإسماعيلي ومنتخَب مصر في السبعينيات؟ لقد رحَل الولد من القاهرة ليجرب حظه في أمريكا، واشتغل الولد لعيب كرة في أحد نوادي نيويورك وأجْرُه قدْرُه ثلاثة آلاف دولار في الشهر خلاف الشقة والسيارة ومكافآت التعادُل والفوز وهدايا المُحبِّين والمشجعين ... واستقر الولد في مدينة نيويورك هانئًا بما هو فيه شاكرًا رب العباد على نعمائه ... ومر عام وتوجَّه أسامة إلى النادي فوجد أبوابه مُغلقة وليكتشف أن صاحب النادي باع النادي بما فيه وبمن فيه ... أدوات ومُعدَّات ومُدرِّبين ولاعبين إلى شركة في كندا وأن على الجميع أن يَنتقِلوا إلى هناك! ورحل أسامة إلى كندا فهكذا تَقضي القوانين، فاللاعب مُجرَّد شيء في النادي وهو لحظة التوقيع على العقد يكون قد وافق على بيع نفسه وشخصه، وليس فنه أو لعبه، وعلى صاحب الشغل أن يتصرَّف فيه وكما يشاء خلال المدة المحدَّدة، في كندا فوجئ أسامة بأن الشركة التي اشتَرت النادي قد قامَت ببيع النادي مرة أخرى إلى مشترٍ آخَر في كاليفورنيا، وحمل أسامة عصاه على كاهله ورحل إلى لوس أنجلوس فهو بعد أن وقع العقد أصبح موظفًا بدرجة جناح أيمن في فريق الكورة، ويحضر إلى النادي حسب نظام صارم، ويخضع لنظام دقيق وهو يتدَرَّب في مواعيد ثابتة، ولا تَتغيَّر، ولا يُقْبَل أي اعتذار إلا في حالات المرض الشديد، وإذا حدث وتمارَض اللعيب وقَّعُوا عليه الجزاء وأحالوه إلى لجنة التحقيق ... وإذا حدث وتمادى اللعيب في الدَّلَع وأمعن في التزويغ فإن قرارًا بالفصل في انتظاره والطرد من النادي هو مصيره المحتوم؟

وبأسلوب حياتنا وبالطريقة السبهللية والتوكلية التي تمضي عليها أمورنا قد يقول قائل: وما له الطرد أو الفصل؟ سيذهب اللاعب إلى نادٍ آخَر، وقد يأخذ أجرًا أكبر، وقد يجد

ظروفًا أفضل وسيعاود حياته من جديد، هذا يحدث عندنا ولكن الذي يحدث في أمريكا هو العكس، نهار أبوه أزرق اللاعب الذي يَطردُه ناديه، سيصوع ولا كلبة مسعورة، وسيُضرَب ولا حمار في مطلع، وسيجوع ولا مؤمن في بلد كلها خنازير ... لأن النادي الذي سيطرده سيُصدِر في الوقت نفسه قرارًا بوقفه عن اللعب، وإذا صدر قرار بوقفه عن اللعب فليس لأي قوة في العالَم الحق في أن تخرج عن هذا القرار، واللاعب يعرف أن مصيره مُعلَّق على قرار من هذا النوع ومستقبله مرهون بموقف من هذا الطراز، وعلى اللاعب أن يلتزم بقوانين النادي وتعليمات المدرِّب، وأن يحظى بعطف وحُب وتشجيع ناديه؛ لأنه لا مهرب أمامه، ولا طريق للنجاة، وليس هناك وسيلة للعيش إلا باحترام القوانين والتفاني في خدمة النادي، والإجادة في اللعب لكي يحظى فوق كل ذلك بتأييد الجماهير.

عندنا في بلادنا كنت أعرف لعيبًا نجمًا يتسكَّع عند خط التماس والكل يتوسَّل إليه لكي يشترك في المباراة، وكان النجم يَدَّعي المرض في البداية ثم يُساوِم في النهاية ليحصل على أَجْر مُعيَّن وكان لا يخلع ملابسه إلا إذا تناوَل الأتعاب. أعرف نجمًا آخَر كسر القواعد وخَرَق جميع القوانين، وتحدَّى كل النُّظم والأعراف، واضطر اتحاد الكورة في مصر إلى وقفه عن العمل لمدة عام، ولكن لم يَمضِ شهر على هذا القرار ... حتى احتاجوا إليه فجأة وفي مباراة بين مصر وإيطاليا في كأس العالَم العسكرية في كرة القدم، تمكَّن الفريق الإيطالي من إحراز هدفين في الشوط الأول وكان يكفي مصر التعادل لتفوز بكأس العالَم وبحثوا عن الكابتن إياه خلال الشوطين حتى عثُروا عليه في مقهى في عابدين يجلس مسرورًا آخر هدوء وانسجام! وسحبوه من يده إلى أرض الملعب وألبسوه زِي الكورة وهو غائِب عن الوعي لا يكاد يعلم ماذا يجري من حوله، والغريب أنه اشترك في اللعب، واستطاع تسجيل هدفين وتعادلَت مصر مع إيطاليا، وفازت بكأس العالَم وأصدر اتحاد الكورة قرارًا برفع الوقف عن اللاعب، ويا دار ما دخلك شر!

الفصل السادس عشر

تجارة الرياضة

اللعب هنا على الكيف، وهناك على اللائحة، والعلاقة هنا بالمزاج وهناك بالقانون، واللاعب هنا هو الذي يَتحكَّم في النادي، والنادي هناك هو الذي يتحكم في اللاعبين؛ ولذلك فالرياضة عندنا تَسير في خط مُتعرِّج وتسير هناك على خط مستقيم. وهنا نلعب يومًا كالبرازيل ويومًا كالزرازير … وهناك يلعبون بمستوًى واحد ويُحقِّقون نتائج معروفة سلفًا؛ لأن كل شيء هناك بالكمبيوتر والحساب وليس بالنية وحسب التساهيل … ولكن اللعيب هناك يُعامَل كمَلك وله حقوق ولا حقوق نجم السينما، وأجْرُه يتيح له حياة كريمة يحرص هو على استمرارها؛ ولذلك يحرص على الطاعة وتنفيذ الأوامر والبنود، وفي أغلب بلاد العرب يحترف اللاعب عشر سنوات وينتهي إلى التَّسوُّل، وإن ساعده الحظ وجد نفسه موظفًا في أرشيف مصلحة المجاري، أو بوابًا في عمارة من عمارات الأوقاف! أعرف لاعبًا «دوليًّا» مثَّل مصر في أولمبياد طوكيو، وحصلتْ مصر على المركز السادس وكان شهيرًا وجهيرًا واسمه يُدوِّي كالطبل في المنطقة العربية والأفريقية وفي بلاد ما وراء البحار، ويَسرَح الآن بجردل قازوزة على المُصيِّفين في بلاج بورسعيد صيفًا، ويسرح بملابس مسروقة على أرصفة بورسعيد شتاء، وينام بعض الليالي في بيته وأغلب الليالي في قسم بوليس المناخ … كيف صاع الدولي وضاع؟! لأننا نستخدم اللعيب بأقل الأثمان، ثم نرميه في النهاية لأتفه الأسباب.

وفي فترة تألُّقه نحرص على حاضره ولا نهتم بمستقبله؛ لأننا نعامله كلاعب وليس كإنسان، فهو مجرَّد آلة عندنا ينتج اللعب، فإن شاخ أو أصابه عطل ما؛ ذهبنا به إلى الجراج وبعناه بأبخس الأثمان! وهناك تبدو العلاقة بين اللاعب والنادي وكأنه أداة، ولكن الحقيقة عكس ذلك على طول الخط، فهم يُؤمِّنون على اللاعب بمبلغ كبير يَقبضه ورثته إذا مات، أو إذا اعتزل اللعب، وهو مَبلَغ يكفيه لأن يبدأ حياته، وصاروا أصحاب ملايين أو

أصحاب عقارات، وأصحاب طين، وكلهم في بحبوحة من العيش، وكل الخير الذي لديهم من عَرَق أقدامهم أو عرق سواعدهم نتيجة الرياضة وما قدموه للناس من فن خلال فترة التألُّق والشهرة والعنفوان!

في ولاية ميتشجان الأمريكية حاولتُ أن أجري حديثًا مع لاعب بيسبول شهير، قالوا لي إنه واحد من مليونيرات الولاية المعدودين، وإن ثروته تُقدَّر بعدة مليارات، وإنه لو وقَّع على كل الأتوجرافات التي تُقدَّم إليه أو تُرسَل إليه بالبريد لأنفق عمره كله في أداء هذا العمل دون أن يجد فرصة لأداء عمل آخر، واتصلتُ من فندقي بالسيد اللعيب المليونير وردَّت على الجانب الآخر سكرتيرة تُغنِّي ولا تتكلم، ولما فهمَت أنني صحفي من بلاد الشرق وأنني أريد إجراء حديث مع النجم المشهور أمهلتني ساعة لتأتيني بالجواب بعد أن تتصل باللاعب الشهير، وبعد ساعة بالضبط جاءني الجواب «ممكن إجراء الحديث بعد ٤٥ يومًا، وسيُسمح لي بنصف ساعة فقط وسأدفع عشرة آلاف دولار نظير إجراء الحديث!» واعتذرتُ للسيدة السكرتيرة لضيق ذات الوقت وليس لضيق ذات اليد ... أعوذُ بالله!

وفي فيلادلفيا اتصلتُ بمُلاكم أبيض كان يستعد وقتها لبطولة العالَم لإجراء حديث معه اعتذرَت السكرتيرة لانشغاله الشديد في التدريب، قلت: أريد بعض المعلومات عن البطل إذا أمكن؟ قالت: المعلومات ستكون متوافرة بعد ساعة زمان وسنُرسِلها إلى الفندق مع مخصوص، وقالت وهي تنهي المحادثة: عليك أن تقدم أجر خمسين دولارًا للسكرتيرة التي ستحمل المعلومات إليك. وقلت: آسف لأن طائرتي ستغادر بعد عشر دقائق! وكنتُ كاذبًا فيما أقول! قالت: إذن تستطيع أن ترسل لنا المبلغ وسنرسل لك المعلومات على العنوان الذي تريد، وشكرتُ الست السكرتيرة ووعدتُها خيرًا، وأقسمتُ ألا أُجْري حديثًا مع أي رياضي في أمريكا على الإطلاق!

وإذا كانت الرياضة عندنا هواية فهي عندهم تجارة ومكاسب وفلوس ... أغنى رياضي في العالَم أمريكي وهو نجم من نجوم البيسبول، ثاني أغنى رياضِيٍّ العالَم وهو برازيلي وهو بيليه، الثالث والرابع والخامس أمريكيون وهم برضه من نجوم البيسبول، ولو في العالَم ألف رياضي غني سنجد أن تسعمائة منهم من أمريكا، ومائة من أوربا وأمريكا اللاتينية، أما اللعيبة تَبعْنا فلهم الستر والعمر الطويل، ولكن هل تأتي الثروة من اللعب فقط؟ والجواب نعم، تأتي من اللعب أولًا، ثم تنمو بالشُّهرة والأعمال والمشروعات وعقود الدعاية والإعلان ... مثلًا محمد علي كلاي كان يهبر عدة ملايين كل عام لقاء

ظهوره في إعلان عن الهمبورجر، ونجم التنس ماكنرو كان يلهف عدة ملايين كل عام لقاء ظهوره في إعلان عن دنلوب، وبطل سباق السيارات الأمريكي يقبض عدة ملايين كل عام لقاء ظهوره في إعلان عن جنرال موتورز، وكل أمريكي شهير له حصة في ميزانية الدعاية والإعلان، وهي ميزانية ترصدها الشركات في أمريكا وتُقدَّر بعدة بلايين من الدولارات، ويفوز بالنصيب الأوفر من هذه الميزانية نجوم السينما، ثم نجوم الرياضة، ثم نجوم السياسة الذين اعتزلوا المباحَثات والمفاوَضات وتفرَّغوا لأمور الدعاية والإعلان.

وفي الوطن العربي مائتَا مليون بني آدم، وربما ربع مليون شخص أو أقل هم الذين يُمارِسون الرياضة والألعاب، وفي أمريكا مائتان وأربعون مليون، منهم أربعون مليون يمارسون الرياضة، وعدد المحترفين ثلاثة ملايين بالتمام والكمال، والرياضة هناك شركات ومؤسَّسات وعِصابات، والمجال الذي يظهر فيه أثَر العصابات هو الملاكمة؛ فأغلب الملاكمين تلتقطهم العصابات من الشوارع وتُدرِّبهم على الملاكمة وتستخدمهم في حوادث عنف، واللامعون من بينهم يَذهَبون إلى الحلقة، والأغنياء منهم يحترفون الجريمة، والرءوس الكبيرة في العصابة هي التي تُحرِّك الجميع مُلاكِمين ومُجرمين على حدٍّ سواء، ومعظم دَخْل الملاكمين يذهب إلى رجال العصابات.

الفصل السابع عشر

باي ... باي

«الآن وقد طُفنا ببلاد العم سام، مشرقها ومغربها، وعِشنا مع أَثرِيائها وصعاليكها، وتكلَّمْنا مع مُثقَّفيها ومغَفَّليها، ورأينا حسناتها وسيئاتها، واكتشفْنَا أنها ضدنا لأننا ضد أنفسنا، وتمنَّيتُ على الله الكريم أن نستفيد من الحَسن الذي لديهم وأن نتجنب الشر الذي عندهم. فأمريكا مثلها مثل أي مكان آخر. ليستْ خيرًا خالصًا، ولا هي شرٌّ خالص، وإنما فيها كل شيء وإن كانت حسناتها أكثر من سيئاتها».

ونحن على أهبة الرحيل لا نملك إلَّا أن أقول ... الله الله على أمريكا، الله عليها وع اللي حواليها.

كل شيء متوافر، وكل شيء موجود، وكل شيء على قَفا من يشيل. أنهار ... ألف نهر ولا نهر الكونغو، وترَع ... عشرة آلاف ترعة ولا ترعة سُبْك، وبحيرات ... عشرة آلاف بحيرة ولا بحيرة التمساح، وأشجار على ودنه، وفاكهة من كل صنف، وحيوانات من كل شَكْل، وطيور على كل لون. الحيوانات من الأسود، إلى الضباع، إلى الفهود، إلى الديوك الرومي المُتوحِّشة، الديك منها ولا خروف معلوف قبل العيد الكبير بعدة شهور، والعجيب أن للدِّيك الرومي عيدًا يحتفلون به في أمريكا. وأصل الحكاية أن المهاجرين الأوائل عندما نزلوا على الشواطئ، جاء عليهم حين من الدهور كاد الجوع يقتلهم، وقد حاصرتهم المياه من كل جانب وضَربتْهم العواصف من كل صوب وقذفتهم السماء بحجارة من جليد، ولم يكن هناك شيء يُؤكل ولا أمل في ذلك فالمزروعات غطتها الثلوج والماشية نفقت من شدة الصقيع والجوع، وحتى الطيور اختفت؛ فقد هاجرَت إلى مكان آمن. ووسط هذا الهول الأعظم والموت الزؤام. تطوَّع عشرة من المهاجرين الشُّبان للبحث عن طعام في أي مكان وفي كل مكان. وخرجوا يَتعثَّرون في الثلوج ويغوصون في الأوحال، ومر عليهم نهار وليل ثم نهار آخر، وكاد اليأس يقتلهم والجوع يُعمي أبصارهم ويفقدهم

توازنهم، فَقرَّروا العودة ليُعلنوا للآخرين أن الأرض التي جاءوا إليها ليست أرض السمن والعسل، ولكنها أرض الثلوج والطين. وأنها ليست أرض الميعاد، ولكنها أرض الممات، وفي طريق العودة والأنفاس تقطَّعت، والصدور تحشرجَت، والعافية راحت، والأمل خبَا وانطفأ، ظهر فجأة قطيع من الديوك الرومي المُتوحِّشة، واضح من منظره أن أفراده شعروا بالجوع فخرجوا يبحثون عن غذاء. وتقابل القطيعان على الجوع، وتقاتلوا على مَن يأكل الآخر. معركة الرجال والديوك. وكانت معركة نزفت فيها الدماء وتحطَّمَت فيها العظام وتكَّسَرت فيها الرءوس، ولم يحسمها في النهاية إلا البنادق والرصاص. عشرات الديوك، وحمل الرجال معهم إلى معسكر اللاجئين مِئات الديوك وكانوا قد أشرفوا على الهلاك، فأكلوا هنيئًا وشربوا مريئًا وعاشُوا بعد ذلك على إبادة نوع آخر من المخلوقات اسمه الهنود! ويحتفل الأمريكيون كل عام بعيد الديك الوحشي. يحتفلون به وقد تغيَّرَت الظروف وتغيَّر الديك أيضًا. فلم يَعُد الأمريكيون يُعانون الجوع، ولم يعد الديك وحشيًّا، فقد تَكسَّرت أظافره، وفقد حِدَّة منقاره، وأصبح كالدَّجاج البلدي، آخر لطافة وآخر خنوع. لقد انقرضت الديوك الوحشية من أمريكا ولم يعد لها وجود إلا في الأماكن النائية، وعددُها لا يتجاوز المئات! وخلا مكان الديك في مملكة الوحوش، وإن كانت المملكة لا تزال عامرة بكل أنواع الوحوش ... السِّباع والضباع والطيور الجارحة والبني أدمين! وإذا كانت أمريكا بلاد الوفرة فهي — أيضًا — بلاد التِّيه. فمن نيويورك إلى كولورادو مسافة أربع ساعات بالطائرة الجامبو، وهي نفس المسافة من طرابلس إلى الكويت، ومن كولورادو إلى تكساس مسافة ساعة ونصف الساعة، وهي نفس المسافة من البحرين إلى بغداد، ومن تكساس إلى لوس أنجلوس ساعتين ونصف كالمسافة بين القاهرة والرياض، ومن واشنطن إلى سان فرانسسكو سبع ساعات ونصف الساعة، وهي نفس المسافة من أبو ظبي الدار البِيضاء. ومع ذلك فلا أحد هناك يستوقفك، ولا أحد يفتشك، ولا جمارك ولا حدود ولا جوازات، بلاد الله لخلق الله. كل مُواطن فيها حُر. يتجوَّل كما يشاء أو كما يستطيع، فالتذاكر غالية والمصاريف باهظة، ولكن الأمريكي معه فلوس ودخله يكفيه للمعايش والتجوال. والسبب هو وحدة هذه الأمة الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادي، شققه واحدة بلا تقطيع ولا انفصال، ولذلك البطيخ «المكسيكو» يُغطِّي الولايات المُتَّحِدة كلها صيفًا، والعنب وارد «كاليفورنيا» يُغطيها صيفًا وشتاء، وكل الولايات تعطي وتأخذ، لا رسوم ولا تعقيدات، مع أن الفروق بين الولايات أعمق من الفروق بين بلادنا، وحتى اللهجات أكثر تباينًا من عندنا، فالتِّكساسي لا يفهمه النيويوركي، والفرجيني لا

يفهم الأريزوني، ونمط الحياة في دنفر يختلف عن نمط الحياة في بافالو، ولكن التفاهم موجود، والمصلحة قائمة، والبَركة حَلَّت على الجميع. وفي أمريكا مائة قومية، ناس أصولها آرية، وناس من الهنود الحمر، والسُّود جميعًا من أفريقيا، ولديهم قومية كبيرة من الصُّفر ... من الصين واليابان وجنوب شرق آسيا ... وفي أمريكا عرب أمريكان، وأمريكان يهود، ولديهم إسبان يتكلمون لغتهم حتى الآن، ولديهم مائة دين، فمَعابد البوذيين منتشرة، ومعابد اليهود قائمة في كل ركن، ومآذن المسلمين مرتفعة في السماء، والكنائس من كل صنف وعلى كل لون، مئات الأديان وألُوف المذاهب، ناس تعبد الشجرة، وناس تعبد البقرة، وناس تسجد ووجهها شطر الأهرام، وبالرغم من ذلك فَهُم أمة واحدة ... ونحن عشرون دولة ومائة إمارة ومليون اتجاه ومائة وخمسون مليون زعيم خالد، وبعد ذلك نحلم بالعودة إلى الماضي ونريد أن ندخل الجنة! ولأنها اتَّحدَت، فقد أصبح كل أمريكي حُرًّا وكل أمريكي مسئولًا. والحكومة مجرَّد إدارة للإشراف على تنظيم الأعمال. وليست مالكة للعباد والبلاد. والرئيس الأمريكي موظَّف يمكن فصله أو طرده والاستغناء عن خدماته في أي لحظة، وليس صاحب حق إلهي في حكم الناس، فمَن خالفه منهم فهو ملعون، ومن وقَف ضده فهو مطرود، ومن رفَع يده احتجاجًا فهو متآمر، وخائن، وعميل، وبلا أخلاق قرية! ولذلك فكل شيء هناك على ما يرام. ليس مائة في المائة ولكن سبعين في المائة. وهذا حَسن للغاية. والحكومة تحكم بواحد وخمسين في المائة وليس بتسعة وتسعين في المائة وتسعمائة وتسعة وتسعين في الألف كما هو الحال عندنا، وكل متهم بريء حتى تثبت إدانته، وكل أمريكي حر حتى يحكم عليه القاضي. كل أمريكي مُحترَم حتى نزيل السجن، وأتمنى أن أعيش حتى أرى هذا اليوم في بلادنا، ولكن يبدو أنني أحتاج إلى عمر سيدنا نوح لأرى تباشير هذا اليوم. ولقد حلمتُ بهذا اليوم وأنا أتسكَّع على شاطئ المحيط الهادي بين لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو. وحلمتُ به وأنا لأهم بمغادرة قارَّة أمريكا بعد ستة أسابيع كاملة أمضيتُ أغلبها في طائرات وزرت خلالها أكثر من دستة ولايات وحوالي عشرين مدينة، وزُرت القرى والريف الأمريكي وهو ريف غني بالمحاصيل، وفقير في المنظر إذا قورن بريف إنجلترا، وتمشيَّتُ أفرنجي على شواطئ البحيرات، وفي أمريكا عدد منها يفوق عدد البرك الناجمة عن طفح المجاري في الوطن العربي وتفرَّجْت على مسارح مانهاتن وعُلَب الليل، وشاهدتُ باعة المُخدِّرات يقطعون الصنف ويضعونه في الميزان حسب طلب الزبون، هكذا علنًا وأمام الناس وعلى عينك يا تاجر. بينما عسكري الدورية الأمريكي واقف على الناصية متشاغلًا وكأننا في الباطنية ولسْنَا في نيويورك،

وتفرَّجْت على بيوت نجوم السينما في هوليود وعلى مقابرهم، وقرأتُ الفاتحة على روح المرحوم دالاس بيري، والمرحوم إدوارد جي روبنسون، والمرحومة لانا تيرنر، والمرحوم جيمس دين، وشاهدتُ أحياء الفقراء، وحارة رابعة بالجيزة أحوالها أحسن بالقطع وأرفع مستوًى من حواري الفقراء في أمريكا، ولاحظتُ أن التفرقة العنصرية لا مجال لها في حي الفقراء، فالسُّود الفقراء والبِيض الفقراء يعيشون جنبًا إلى جنب في سلام وهدوء. وفي انتظار فرج الله، ورأيتُ في أمريكا نصَّابين لا يفوقهم أحد في حرفة النَّصب وحرامية يسرقون في عز الضهر، ودخلت بارات تقدِّم لك المشروب مقابل ثلاثة دولارات وتسمح لك بالفرجة على نسوان ترقص أمام المرأة زلط ملط، وشعرتُ بحزن شديد وأحسستُ بأني جئتُ إلى أمريكا متأخرًا، وكان ينبغي أن أزورها منذ ثلاثين عامًا. ولقد كانت مأساتي الحقيقية خلال الزيارة أنني لم أكن قادرًا على قطع الرحلة حتى النهاية واضطربَت أحوالي قلة صحتي وعظيم رغبتي.

وأتمنَّى أن تتيح لي الظروف زيارة أمريكا في مناسبة قادمة. لكي أرى الولايات التي لم أرها، وأطوف بالأماكن التي لم تَقع عيني عليها.

ونصيحة واحدة للعبد لله إلى كل ويكا يرغب في السفر إلى أمريكا، أن يطرد هذه الفكرة من دماغه إذا كانت شهادة ميلاده تشير إلى أنه قد تعدَّى الثلاثين، وأرفع قبَّعتي الآن، وأنحني وداعًا لأمريكا، وأرفع قُبَّعتي بالرغم من أنني ليس لي قبعة وليس على رأسي شعر، ولكنها عُقدة الخواجة التي أصابَت البعض منَّا، فأصبحْنَا نتشبَّه بالخواجة. ومَن تشبه بالخواجة يُكْرَم.

وأقول وداعًا لقارَّة أمريكا، وأنا أستعد للطيران عائدًا من حيث جئتُ. وهتفتُ من أعماقي وأنا ألقي على أمريكا نظرة أخيرة ... باي باي بلاد العم سام ... باي باي بلاد الفَتوَنة، والقَرْصَنة، والطمَع، والجَشَع، الثورة والثَّروة، والعافية، والمافيا، باي باي بلاد الأحلام!

هنـــداوي